روايات
نجيب الكيلاني

٢٤

قضية أبو الفتوح الشرقاوي

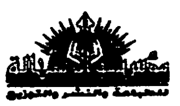
مؤسسة الرسالة

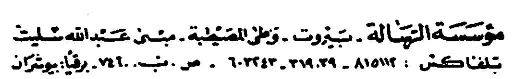
قضية

ابو الفتوح الشرقاوي

(روايـــة)

الطبعة الثانية
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م





Al-Resalah
PUBLISHING HOUSE

BEIRUT / LEBANON - TELEFAX : 815112 -319039 - 603243 - P. O. BOX . 117460

قضية

أبو الفتوح الشرقاوي

(رواية)

تأليف

نجيب الكيلاني

مؤسسة الرسالة


بسم الله الرحمن الرحيم

العاشقة

آلاف المحاذير كانت تنصب في أذنيه كل يوم «يا طفلي الصغير لا تقترب من البحر.. البحر مليء بالجنيات والشياطين.. شوقي يا حبيبي.. لا تمش في الطرق المهجورة فهناك من يختطفون الأطفال.. لا تصعد فوق الأشجار وإلا قذفت بك أيدي العفاريت فتسقط مهشماً. وتتكسر عظامك..» كل هذه النصائح كانت تلقى عليه مع قصار السور التي يحفظها في كتاب القرية، ومع وجبات الطعام اليومية، وعند الاستيقاظ من النوم مبكراً في الصباح، حتى أصبح شوقي ذو الستة أعوام من العمر يحفظها عن ظهر قلب.. ويرددها دائماً مع أقرانه.. لقد آمن بها أعمق الإيمان، فلم يعد هناك أدنى شك فيها.. ولا يدري شوقي كيف نسي هذه النصائح كلها عندما سمع أن «بحر العباسي» قد شهد حادثة مروعة لم يفكر أو يتردد، أخذ صديقه عبد القادر وجرى بسرعة صوب الترعة.. واستمر في جريه منطلقاً إلى المكان الذي حددوه والذي يبعد عن القرية أكثر قليلاً من الميل.. لم يخف من الترعة الطافحة بالماء وجنيات البحر، ولم تساوره الوساوس وهو ينطلق مع عبد القادر إلى جوار حقول الذرة الخضراء على يساره.. لقد زعم البعض أن هناك سيارة

سقطت في «البحر العباسي»، وأن القتلى تطفو جثثهم على سطح الماء إلى جوار الشاطىء.. وأن من بين الضحايا نساء جميلات.. وأطفال زرق العيون.. ومشغولات ذهبية.. وملابس متناثرة هنا وهناك.. كان شوقي يلهث، والعرق يتصبب على جبينه.. في لحظة نسي كل وصايا وتعليمات أمه.. إنه يريد أن يرى السيارة تلك التي لا تأتي في القرية إلا نادراً جداً.. ربما لم يرها أكثر من مرتين.. وفي كل مرة كانت تمر كالريح مخلفة وراءها عاصفة من الغبار الكثيف.. لم يركبها قط.. والنساء اللاتي يتحدثن عنهن لم يكن يراهن إلا في الأحلام بصورة غامضة غريبة.. فما أعجب أن يراهن موتى لا حول لهن ولا قوة.. ووصل شوقي وعبد القادر إلى البحر العباسي بعد لأي ومشقة بالغة.. توقفا.. كان صدراهما يعلوان ويهبطان نظرا حولهما لم يجدا شيئاً.. رآهما أحد الفلاحين..

ــ «ما الذي أتى بكما؟؟».

ــ «الحادثة.. السيارة..».

أشار بيده جهة اليمين، فاستأنفا الجري شرقاً بحذاء شاطىء «البحر العباسي».. لم يلتفتا إلى المراكب الشراعية التي تحمل الجرار والملح ومختلف البضائع، وهي تتهادى آمنة مطمئنة على سطح الماء، وأشرعتها البيضاء تخفق في مهابة.. وطال الطريق، حتى أجهدهما الجري المتصل، وكادا أن يسقطا إعياءً.. لكن نداءً داخلياً، وقوة سحرية تدفع في جسديهما النشاط والإصرار.. يقول عبد القادر «أشعر بظمأ شديد، لِمَ لا

نتوقف ونشرب من البحر؟» أصر شوقي على منعه مخافة أن تمتد إليه يد «الجنية» وتسحبه إلى الأعماق، سرت قشعريرة الخوف في جسد عبد القادر وزاد من معدل خطواته.. صورة السيارة الغريقة، والجثث المتناثرة.. والجواهر.. والأموال المتناثرة ترسم لوحة غريبة بديعة في ذهن الصغير شوقي.. لسوف يعود بشيء من هذه الغنيمة إلى أمه.. وسيأتي الأطفال من حاراتهم ليروا ما لم يروه في حياتهم قط.. وقد يجد فستاناً حريرياً لأخته الصغرى «فريدة» تلك التي تمزق ثيابها، والبرد يرعش شفتيها ويديها.

وأخيراً في مكان مقفر وجد سيارة «ملاكي» زرقاء، نصفها في الماء والطين، والنصف الآخر الخلفي مرتكزاً على ضفة النهر.. وإلى جوارها وقف رجلان من أهل المدينة يلبسان الملابس الافرنجية والطربوش.. وكانا يتحدثان في عمق وهدوء.. قال أحدهما: «لقد سرق اللصوص كاوتشوك العجلات الأربع» ورد الثاني وهو يتفحص السيارة من الداخل.. «وسرقوا بعض قطع الغيار..» ثم فتح حقيبة السيارة الخلفية واستطرد «واستولوا على الآلات والعجلة الاحتياطية.. وبعض الأشياء الأخرى».

وعلق الأول: «أمر سخيف.. إن هذه الخسائر سوف تكلفنا أكثر من خمسين جنيهاً.. وهذا مبلغ كبير.. إن ضعفه يمكننا من شراء سيارة جديدة مستعملة ولو أن السيارات ارتفع ثمنها منذ بدأ هتلر الحرب منذ شهور.. عموماً الحمد لله.. فهي خسائر محدودة..».

وانصرف الرجلان بعد أن اتفقا على أن يرسلا ميكانيكياً لاصلاحها، وركبا سيارة أخرى كانت تقف بعيداً عن موقع الحادث..

اقترب شوقي ـ وخلفه صديقه عبد القادر من السيارة، ملأ عينيه بمقاعدها ومنظرها العام من الداخل ثم من الخارج، لمسها لأول مرة بيديه، وضع خده على زجاجها ثم على هيكلها.. تحسس الفوانيس التي كانت تضيء.. فتح باب السيارة ثم أغلقه.. لم يحكم الإغلاق.. قال عبد القادر:

ـ «ابتعد عنها.. إنها مسكونة بالعفاريت..».
ـ «لا أرى شيئاً».
ـ «العفاريت لا يراها أحد..».

تلفت شوقي حواليه وقال في خيبة أمل:
ـ «لا أطفال.. ولا نساء.. أين الذهب والحرير؟؟ هل سبقنا إليها أحد؟؟».

ها هو «أبو الفتوح الشرقاوي» بائع الخضروات والفواكه في القرية يهرول نحوهما.. في يده خيرزانته العتيقة ساحباً حماره المعروف.

ـ «ابعد يا ولد أنت وهو».

تنحيا جانباً، شمل أبو الفتوح ذو الخمسة والعشرين ربيعاً المكان بنظراته المتفحصة.. نظرات التاجر الخبير، وقاس بنظراته أيضاً شاطىء البحر، وتابع قليلاً السيارة التي ركبها الرجلان القادمان من المدينة.. بدا على وجهه شيء من الضيق

هو الآخر. . لم يجد شيئاً ذا بال يدعو لبقائه. . لكنه عاد وحاول أن يخلع أحد المقاعد ليأخذه معه، مجرد غنيمة يعود بها لزوجه وأولاده. . لكن المقعد استعصى عليه، سب، ولعن، وبصق، ثم استدار، ووثب فوق ظهر حماره. واتخذ طريق العودة:

ــ «خذنا معك يا عم أبو الفتوح. .».

ــ «امش مشت عليكما بطنكما. . ما الذي أتى بكما إلى هنا؟ عيال بلا تربية. .».

وهز رجليه، وصاح بحماره «حا. . حا. . حا يا ملعون. . مشوار بدون معنى. .».

حاول شوقي وعبد القادر في رحلة العودة أن يجريا خلف حمار أبو الفتوح، كانا منهكين ويخافان أن يضلا الطريق، لذلك استمرا في الجري حتى بلغا موضع خروج الترعة من «البحر العباسي» ثم أبطآ المسير. . حيناً يغرفان من ماء الترعة ويشربان. . وحيناً آخر يخلعان عوداً من الذرة الخضراء، ويقشران الكوز، ثم يأكلانه غضاً ليسدا نوبة الجوع التي داهمتهما. . وصاحب الحقل يجري وراءهما، ويقذفهما بالحصى، ويكيل السباب لهما ولآبائهما. . ثم جلسا يستريحان بعض الوقت تحت شجرة من التوت. . تذكر شوقي أمه والوصايا الدائمة. . البحر. . والطرق المهجورة. . والجنيات والعفاريت. . وسارقي الأطفال. . ويستأنف المسير مرة أخرى حتى لا تطول غيبته. . قال لعبد القادر: «لا تخبر أحداً بما جرى وإلا ضربتني أمي». .

عندما دخلا القرية وجدا جمعاً غفيراً من الناس يتزاحمون، وفي وسط الحشد الكبير بصرا بأبي الفتوح الشرقاوي وحماره.. كان أبو الفتوح يقول:

ـ «من واقع سجلات النيابة.. القصة هكذا.. امرأة البك الكبير أخذت عشيقها، وهربت معه.. وصلا إلى منطقة مقطوعة على البحر العباسي.. جلسا تحت مظلة القمر يشربان الخمر.. ويمارسان الرذيلة.. كانت بيضاء جميلة مثل الأميرات الفاتنات.. عبثا ما شاء لهما العبث.. نزلا النهر ليستحما..

«إن ربك لبالمرصاد» صدق الله العظيم.. سحبتها جنية البحر إلى الأعماق.. هرب العشيق، ووقف على الشاطىء يلطم خديه.. وأخيراً طفت جثتها على السطح.. نادى العاشق: «البر يا طالب الدفن» كما نقول نحن لكل غريق.. وجد جثتها تقبل صوب الشاطىء.. صرخ.. تجمع الناس.. نعم في الليل.. بل بعد منتصف الليل.. لا أدري، هذا ما حدث أقبل الناس من كل مكان.. كيف؟؟ حكمة ربنا يا مؤمن.. هل تنكرون أن الله قادر على كل شيء.. أمر يؤسف له.. استولى اللصوص على المجوهرات والملابس.. وساقوا العشيق عارياً إلى دوار العمدة.. ومنه إلى المركز..

انقلبت الدنيا رأساً على عقب.. بوليس.. نيابة.. خيول.. عربات إسعاف.. الظاهر أنهم باشوات.. هم ملوك الفضائح.. وجرت جموع الناس إلى الطريق المؤدي إلى «البحر العباسي» وقف شوقي مذهولاً وهو يستمع إلى

القصة.. إنه لم ير شيئاً من هذا كله.. لكن من يدري؟ لعل أبو الفتوح يعرف أكثر.. اقترب شوقي منه

ـ «يا عم أبو الفتوح.. أنا لم أر شيئاً مما تقول؟؟».

ـ «لأنك عبيط.. ولم تزل صغيراً...».

ـ «لكن يا عم أبو الفتوح الـ...»

قاطعه أبو الفتوح قائلاً وهو يركب حماره:

ـ «اذهب معهم مرة أخرى وسترى..».

ـ جرى شوقي مع الحشد الكبير الذي يتدفق صوب الجنوب..

لشد ما يشعر بالارهاق.. لم يتغير المشهد عن سابقه السيارة بلا إطارات.. تقف معزولة جامدة لا حس ولا حركة.. كل ما في الأمر أن أحد الخفراء جلس على مقربة منها لحراستها، ومنع الناس من العبث بها.. انهمرت أسئلة المحتشدين على «الخفير».. سألوه عن العاشقة والعشيق، وعن.. وعن.. وهو يستمع إليهم دون اكتراث، ويلف التبغ في ورقة رقيقة، ويتمتم:

ـ «أنا لا أحب إلا السجائر اللف..».

ـ «الحادثة..».

ـ «أي حادثة يا بهائم؟».

احتج البعض، لكن الآخرين زجروهم لكي يعرفوا الحقيقة من فم الخفير نفسه.

قال الخفير ببرود:

حادث سرقة مقيد ضد مجهول».

ـ «والمرأة؟؟».

ـ «الله وحده أعلم».

ـ «هكـذا الحكـومـة لا تـريـد أن تقـدم المعلومـات الصحيحة..».

قال الخفير:

ـ «مهمتي فقط هي حراسة «العين المسروقة» أما غير ذلك فلا صلة لي به..».

ـ «لكن الناس يقولون..

صاح بأعلى صوته، وهز البندقية العتيقة التي في يده:

ـ «اذهبوا وإلاّ قبضت عليكم بتهمة ازعـاج السلطات، وتعـطيـل الحكـومـة عن أداء واجبـاتهـا.. يـا بلد لا تحـترم القانون.. يا غجر..».

لم يستطع شوقي أن يتحرك، فقد شعر بإعياء شديد، كان في حـاجة مـاسة إلى حمـار يحمله إلى داره.. ليته لم يـأت للمرة الثـانية.. كـان يمشي مع عبـد القـادر ببطء، وقـد تسلخت أقدامهما الحافية، لكنه لحسن الحظ رأى أباه قادماً من بعيـد ممتطياً حماره..

قرصه أبوه من أذنه، ثم حمله من تحت إبطيه وأركبه الحمار، وأتبعه بصديقه عبد القادر وهو يزمجر، ويعيد على سمع شوقي وصايا أمه التي كانت تحفظها له مع قصار السور في القـرآن الكريم..

عند العشاء سمع أمه تقول لأبيه:

ـ «يابو شوقي.. يقولون أن الحكومة تسترت على الفضيحة.. إنهم من كبار الناس.. يا للعار! امرأة بنت ناس.. من كبار القوم وتفعل ذلك؟؟ الناس رأوها ميتة بين أوراق الذرة الخضراء يقولون أنها جميلة.. فتنة.. لقد ستروها بالجلابيب والخيش حتى...».

قال شوقي:

ـ «لم أر شيئاً يا أمي».

ردت أمه:

ـ «لأنك أعمى.. ثم ما شأنك أنت بهذه الأشياء؟».

ثم التفتت إلى زوجها:

ـ «امرأة العمدة تقول أن العشيقة الفاسدة من عائلة الرهطاوي باشا.. وأن..».

قال أبو شوقي في ملل:

ـ «علي أن أستيقظ قبل الفجر.. لا بد من ري الذرة، وبذر البرسيم..».

ثقلت رأس شوقي، ألقى برأسه على الوسادة الصغيرة، وتمدد على الحصير المتآكلة.. تراوده في منامه نساء جميلات.. وحرير.. ومجوهرات.. وضحكات خليعة.. وسهام نارية تتساقط من السماء لتصيب العصاة.. والجثة النائمة تحت أوراق الذرة تبتسم وتقول له: «تعال.. تعال يا شوقي.. أنت لم ترني.. لكني رأيتك.. تعال إلى جواري..».

ومدت يدها..

وفزع شوقي من نومه، وأخذ يصرخ ويستغيث، هرولت أمه تحوقل وتبسمل وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم:

ــ «كانت ستقتلني..».

ــ «من يا حبيبي؟..».

ــ «المرأة الجميلة.. الجثة..».

ــ «الموتى لا يقتلون أحداً يا ولدي..».

ــ «بل يقتلون..».

ربتت أمه على رأسه في حنان قائلة:

ــ «نم باطمئنان.. إنك في حضن أمك.. وأنت تقول أنك لم تر شيئاً..».

ــ «لكنهم يقولون أنهم رأوا..».

ثم غاص في أعماق النوم..

الجريمة

اهتزت القرية، واستبدت الحيرة بأهلها، وأخذوا يضربون كفاً بكف، ويبعثرون التساؤلات هنا وهناك، وساد الارتباك في كل مكان، حتى العمدة نفسه وقع في حيص بيص، وعجز عن توضيح أي شيء، أو الاجابة عن أي استفسار.

إن القبض على «أبو الفتوح الشرقاوي»، فتح الباب واسعاً أمام العديد من الاحتمالات والتأويلات، لكن المؤكد أن ليس هناك من يعرف الحقيقة، اللهم إلا إذا كان أبو الفتوح الشرقاوي الذي أكد منذ البداية أنه رأى الجثة وسط أعواد الذرة الخضراء، وتأكد من وساقها والمجوهرات التي تحلي جيدها وأذنيها، والملابس الحريرية ذات الألوان البهيجة التي تدثرت بها الميتة، كما أفاض في الشرح عن جمالها المذهل وعينيها الواسعتين المكحولتين وشعرها الحريري الناعم الطويل، وغير ذلك من الصفات التي ذكرها لأهل القرية بعد عودته من البحر العباسي حيث الغريقة والسيارة التي نزعت إطاراتها؟

كان أبو الفتوح مذهولاً والخفراء يجرونه مربوطاً بالحبال وقد ركب ضابط واثنان من الشرطة على الخيول وفي أيديهم السياط. والمتفرجون يجرون هنا وهناك ليفسحوا الطريق أمام الخيول، والكلاب تنبح، والثيران تخور، والحمير تنهق، وأبو

الفتـوح يمضي كالنـائم مغنطيسيـاً، ولا يدري مـاذا جرى في الدنيا، «يا ناس أنا بريء.. لم أرتكب إثماً.. لم أر شيئاً.. كله كذب في كذب.. اقسم بالطلاق أنني لم أشـاهد سـوى السيارة والرجلين لابسي الطرابيش.. هذا كل ما في الأمر»، لكن الجمهور لا يصدق مقولته، لقد أخبرهم قبل ذلك عن الجثة وكثير من التفاصيل، وهو يحاول الانكار الآن حتى يفلت من قبضة الحكومة.. لقد روى تفاصيل القصـة على رؤوس الأشهاد، لكن الولد شوقي قال لأمه: «والله ما كان فيه شيء غير السيارة والأفنذية».

نهرته أمه قائلة: «حذار أن تتكلم في هـذا الموضـوع مرة أخرى يا شوقي» لكنه انصرف إلى الزحام تاركاً أمـه لتكمل نصائحها..

انهار أبو الفتوح وبكى، ربت العمدة على كتفه وقال: «لا تجزع يا أبو الفتوح.. قل الحقيقة عندئذ تحترمك الحكـومة، وتعيدك إلى أولادك معززاً مكرماً.. يا ابني شهادة الزور كبيرة من الكبائر..».

أخذ أبو الفتوح يجفف دموعه بكم جلبابه المتسخ فيما كانت امرأته تصرخ بأعلى صوتها.. والنسوة يهدئن من روعها..

في المركز سأله ضابط المباحث:

ــ «هل رأيت الجثة؟؟ وهل يمكن أن تعطينا وصفاً تفصيلياً لها؟؟».

لطم أبو الفتوح على وجهه كثكلى وقال:

ـ «أية جثة يا بك؟؟ كله كلام فارغ . .».

ابتسم الضابط ورمقه بنظرة متوعدة:

ـ هنا بالذات لا يستطيع أحد أن ينكر. نحن ننطق الصخر. . هل فهمت؟؟ وإنكارك يعني أنك متواطىء . .».

كل ما يتذكره أبو الفتوح أنه في لحظة من اللحظات لم يعد يستطيع التعرف على الجهات الأربع الأصلية، كما عجز عن معرفة بعض الأشخاص الذين سبقت له معرفتهم، كان الضرب قاسياً حتى أفقده القدرة على التركيز بل مجرد التفكير، تداخلت الرؤى في مخيلته، تشابكت الأحداث، لم يعد هناك فرق يذكر بين الوهم والحقيقة، والصدق والكذب، والحياة والموت، لقد عاش سنوات طويلة لا هم له إلا البيع والشراء في مجال الفواكه والخضروات، وأحياناً أعواد قصب السكر الحلوة التي يمتصها الناس ويصنعون منها عصير القصب، ويكسب في الشهر أكثر مما يكسبه موظف الحكومة، إن زوجه وحماره وطفليه لا يكلفانه إلا القليل، وعاش طول عمره يضحك ويمزح ويؤلف الحكايات، ويحور القصص، المهم أن يثير الناس أو يضحكهم، الناس المهمومون في أمس الحاجة إلى الترفيه، وهو يحاول دائماً أن ينتزعهم من الواقع الأليم، ويهيم بهم في عالم سحري، هو كالواقع أو شبيه بالواقع، ذلك لأن الناس يريدون ذلك، ويهرعون إليه، ويجدون المتعة والسعادة في الذوبان فيه . .

أعادوه إلى ضابط المباحث زائغ النظرات . .

قال الضابط:

ــ «هل رأيت الجثة يا أبو الفتوح؟؟».

ــ «نعم..».

ــ «وشكلها؟؟».

أغمض عينيه، وترك لنفسه العنان في الخيال:

ــ «بنت باشاوات يا سعادة البك».

ــ «ألم تلحظ بها اصابات؟..».

ــ «دعني أتذكر..».

ــ «تذكر كيف شئت..».

وضع أبو الفتوح اصبعي السبابة والوسطى من يده اليسرى على جانب رأسه.. حاول أن يتذكر.. ارتسمت آفاق صورة جثة فاتنة كتلك التي حلم بها طويلاً: على شفتها ظلال ابتسامة برغم أنها ميتة، وردية الخدين على النقيض تماماً مما يسود وجوه الموتى من الشحوب.. مكحولة العينين، يا إلهي كان أنفها جميلاً.. سبحان الخلاق العظيم.

ــ «يا بك..».

ــ «تكلم يا أبو الفتوح».

ــ «سبحان الله.. تصور لم يستطع أحد أن يكشف عن عورتها.. كانت ترتدي سروالاً أمسكت به بيدين متيبستين.. يا إله العرش.. حاولوا زحزحة يديها.. الخبثاء.. لكنهم فشلوا..»

دق الضابط بيده على المنضدة وقال:

ـ «إذن كان هناك آخرون معك شاهدوا الجثة؟؟».

ارتج عقل «أبو الفتوح»، كيف أوقع نفسه في هذا المأزق، ماذا جرى له؟؟ أنكر في البداية أنه رأى أحداً آخر، لكن كلامه السابق أدانه، ولم يكن أمامه سوى الإقرار بأن آخرين كانوا معه عند معاينة الجثة.. ويكاد يغمى عليه من الحيرة والهوان هذه المرة حينما سأله الضابط:

ـ «اذكر اسماءهم».

ـ «كانوا غرباء يا بك».

ـ «أسماؤهم ما هي؟؟».

ـ «وكيف أعرف؟؟».

ـ «صفهم..».

ـ «واحد ابيض وواحد أسود، و..».

قاطعه الضابط بعنف:

ـ «نعم.. وواحد قصير، وآخر طويل..».

ـ «بالضبط يا بك، وواحد أعور وإلى جواره شخص أعمى.. نعم أعمى..».

ضحك الضابط عالياً:

ـ «أعمى يا أبو الفتوح؟؟».

ـ «ولماذا أكذب يا بك؟».

هز الضابط رأسه قائلاً:

ـ «ومن القاتل؟؟».

ـ «رأيت الجثة ولم أر الجريمة».

وجد أبو الفتوح نفسه يغوص ويغوص في بئر أسود لا قرار لـه، يبحث في رأسه عن صفـات للضحية والقتلة وعشرات الأسئلة التي تطرأ في كل موقف، وضابط المباحث لا يكل ولا يمـل ولا ييأس، ويشعل السيجارة تلو السيجـارة، ويـرشف فناجيل القهوة، ويأكل الصاندوتشات الشهيـة، ويلوك قطع الشيكولاته. . لم يعد لدى أبو الفتوح طاقة مختـزنة لمـزيد من الاحتمال، لذا فكر في الانتحار، كأن يشنق نفسه، أو يقذف بها من فوق سطح المركز، أو يضرب نفسـه بسكين. . لكنـه في الواقع كان أضعف من أن يقدم على ذلك، وهو يعرف نفسه جيداً، يحلم كثيراً، ويعمل قليلاً، فكر ألف مرة قبل ذلك أن يغتال العمدة، أو يدس السم لشيخ الخفراء، أو يسرق البنك في مدينة طنطا، أو يتسلل ليلاً إلى خزانة البريد في «سنباط»، أو يتسلق السور العلوي لبيت «الصراف» في القرية ويستولي على ايراده. . بل والأعجب من ذلك أن أبو الفتوح فكر ذات مرة في السفر إلى القاهرة، ودخول قصر الملك خفيـة عن طريق «الحديقة»، لكنه وجد أن مقابلة النحاس باشا زعيم حـزب الوفد أيسر، لم يكن يحب الوفد، ويكره أحمد ماهر باشا وحزب السعديين، لكنه بالنسبة للإخـوان المسلمين رأى أنهم أسمى وأنقى من أن يلوث مجـالسهم بأنفـاس التبـغ والحشيش التي ينفثها من آن لآخر، كـان يخاف أن يشمـوا رائحته. . وهـو يهـابهم ويحترمهم، لأنهم عـلى حد تعبـيره «من أهل الله». . وعندما يتفضل الله عليه بالتوبة، فسوف يترك الجميع ويذهب إليهم نقياً نظيفاً. .

اهتدى ضابط المركز إلى وسيلة معروفة، وهي عرض صور المشبوهين من اللصوص والقتلة وهاتكي الأعراض وغيرهم، ولعل أبو الفتوح يستطيع أن يتعرف على واحد منهم، وتكون البداية . .

نظر أبو الفتوح إلى الصور في إمعـان، كان يستنـطق كل صورة بينه وبين نفسه، يقرأ الملامح، ويقيس رد الفعل لديه، ثم يشير إلى أن هذا أو ذاك كان واحداً ممن حضروا رؤية الجثة، وضحك أبو الفتوح على الرغم منه حينما وقعت عينه على صورة لص من قريته يعرفه تمام المعرفة، وعلق وهو يضحك:

ــ «لعنة الله عليك يا بسيوني . . هل أصبحت من المهمين لدى الحكومة؟؟ هذا شرف لم تكن تحلم به . .».

وانتهزها الضابط فرصة وقال:

ــ «هل كان بسيوني «المغازي معكم؟».

ــ «طبعاً يا بك . . له في كل خرابة عفريت . .»

ــ «بسيوني؟؟».

ــ «نعم يا بك . . رأيته يتفحص الجثة بعيني هاتين اللتين سيأكلهما الدود . .».

ــ «مقرف . .».

وأصدر الضابط أوامره بالقبض على بسيوني وعلى كل من ذكرهم أبو الفتوح، وهمّ بأن يغادر مكتبه، لكن أبو الفتوح رفع يده إلى أعلى وقال:

ــ «يا بك. . كان معنا طفل اسمه شوقي. . شوقي عبد الفتاح. . من بلدنا يا بك. . ولد قليل الأدب. . ».

قال الضابط:

ــ «أحضروه هو الآخر مع أبيه. . ».

ووثب إلى ذهن أبو الفتوح سؤال أخذ يلح عليه، هل كانت الجثة لقتيلة أو غريقة؟! إنه لا يتذكر إن كان بالجثة اصابات أم لا، لكنه يريد أن يعرف، لهذا توقف عن السير وهو في طريقه إلى «الحجز» ونادى الضابط بأعلى صوته كي يوضّح له هـذه النقطة الهامة، فأفهمه الضابط أنه لا يمكن معرفة ذلك إلا بعد تشريح الجثة بمعرفة الطبيب الشرعي.

عندئذ قال أبو الفتوح:

ــ «ولماذا لم يتم التشريح؟؟».

قال الضابط وهو يرميه بنظرات متشككة متوعدة:

ــ «لأننا لم نعثر على الجثة بعد».

ــ «كيف؟؟ أنتم الحكومة. . ».

ــ «أنت الوحيد الذي اعترف بأنه رآها. . ».

ــ «ولماذا تهتمون بجثة لم تروها؟».

ــ «ليس هذا من شأنك. . ».

سمحوا له في اليوم التالي بأن يقابل امرأته وطفليه، ويأخذ منهم الطعام، كان جائعاً منهكاً محزوناً، أخذ يأكل الدجاجة والأرز المعمر والدموع تنهمر من عينيه، وفي نفس الوقت كان يتكلم، تتدفق منه العبارات المتلاحقة دون رابط، أكد لها أنه لم

ير جثة. . كان محض خيال، لكنه تبين أن الحكومة مصرة على أن هناك جثة، وهم متأكدون من ذلك، ولهذا اعترف بأنه شاهد الجثة، فهل يعقل أن ترى الحكومة شيئاً مؤكداً، ثم ينكر أنه رآه؟؟ ومن هو حتى يكذب الحكومة؟؟ سيكون عندئذ قليل الأدب، ولا يعرف واجب الطاعة «لأولي الأمر».

ـ «لكنك أنت نفسك لم تر شيئاً. . كنت تمزح. .».

قال أبو الفتوح لزوجه دون اكتراث:

ـ «لا يهم».

ـ «سيعدمونك أو يسجنونك».

ـ «المكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين يا قطيفة».

حينما جذبه العسكري من كمه، وأبعده عن أسرته، كان يلتفت إلى الوراء، والعسكري يدفعه أمامه، لأول مرة يشعر أن «قطيفة» وطفليها قطعة منه، وأنهم الآن يقتطعون قلبه أو كبده من بين أحشائه. . لا. . أنهم يسحبون روحه. . وهل يستطيع أن يعيش بلا روح؟؟

ألقى بجثته في ركن من أركان غرفة الحجز، جفف دموعه، وأخذ يستغفر الله ويدعوه من أعماقه أن يفرج كربته، ويأخذ بيده من هذه السقطة الرهيبة التي لا أول لها ولا آخر، وعاد مرة أخرى يفكر في أمر «الجثة» التي اختفت. . من أخفاها؟؟ ولماذا؟ وإلى أين ذهبت؟!

وغمغم أبو الفتوح في إصرار:

ـ «مالي أنا وللجثة؟؟ هل وظفتني الحكومة حارساً على

المحامون.. وسوف أعلن ذلك صراحة في جلسة الغد.. الله الله يا حكومة!!».

الاتهـــام

كـانت مأسـاة رهيبة، ذلـك أن المشتبه في أمـرهم جاءوا وأغلبهم لا يعرف أبو الفتوح، ولم يدروا شيئاً عن الجثة واحد فقط تعرف عليه أبو الفتوح وهو مواطنـه في القريـة «بسيوني المغازي» الذي أنكر بكل ثقة وتأكيد أنه لم ير الجثة، ولم يلتق مطلقاً مع أبو الفتوح عندها، بل أنه أثبت بما لا يـدع مجالاً للشك بأنه قضى ثلاثة أيام في بلدة «تفهْنا العزب» عند أخته المتزوجة هناك ولم يعد من سفـره إلا قبل استـدعائـه بساعـة واحدة، ثم أنه متخصص في سرقة المواشي والأغنام والطيور، ولا شأن له بشيء آخر في عالم اللصوصية والجريمة بصفة عامة، وبـدا واضحاً أن بسيـوني لا يكذب، وأن المشتبـه في أمرهم الذين تعرف عليهم أبو الفتوح من الصور لم يستطع ضـابط المباحث أن يجد قرائن قوية على تورطهم، عندئذ رسخ في ذهن جماعة المباحث أن هناك جريمة قتل، وأن أبو الفتوح متورط فيها لا شـك، ولهذا السبب فـإنه يحـاور ويداور، ويـوسع دائـرة الشبهات، ويربك التحقيق حتى تضيع معالم الجريمة ويفلت من العقاب، وخاصة أنهم لم يعثروا للجثة على أثر، ولم يجدوا أي شيء من مخلفاتها يشي بوجودها.

لكن الأوامـر العليا تؤكـد اختفاء سيـدة من أسرة عريقـة واسمها «عنايات هانم البجيري» كانوا قد زوجوها منذ ثلاثة

أعوام من رجل في الستين من عمره، على الرغم من أنها لم تتجاوز العشرين وكان اختفاؤها منذ أسبوع، وعجزت الشرطة ــ بعد ابلاغ أهلها لهم ــ عن الاهتداء إليها حية أو ميتة، ودلت التحريات على أنها كانت على خلاف شديد مع زوجها، وهو لواء شرطة على التقاعد، ومع أهلها أيضاً، وأجريت التحريات حول علاقاتها في أندية طنطا، ومجتمعاتها الراقية، ومع الرجال والنساء وزميلات الدراسة وكل من كانوا على علاقة بها فلم يتوصلوا إلى نتيجة تضيء لهم طريق البحث عنها، وأمام لغز اختفاء «عنايات هانم البجيري» زوجة الشخصية البارزة، لم يكن هناك مناص من استمرار البحث، وكشف الغموض، وحينما انتشرت الشائعات حول السيارة المسروقة، والجثة تشبثت الشرطة بهذه القصة المثيرة، وأخذت تحاول فك طلاسمها، فالأوامر صريحة ومشددة بضرورة العثور على المرأة الضائعة ذات الوضع الاجتماعي المتميز.

واستطاعت الشرطة أن تصل إلى صاحب السيارة المسروقة، فأخضعته لساعات طويلة من التحقيق حيث ثبت أنه لا يعرف شيئاً عن عنايات هانم، ولا عن اللصوص الذين سرقوا سيارته وأتلفوها، كما جرى تمشيط شامل لكل الذين عرفوا بسرقة السيارات، بل لكل من يعملون في الورش والتجارة المتصلة بالسيارات وقطع الغيار، وكان العجز في الوصول إلى لصوص السيارة مدعاة لمزيد من الشك والحيرة.

قال ضابط المباحث لأبو الفتوح الشرقاوي:

ــ «ربما لو أرشدتنا عن مكان الجثة التي رأيتها نطلق

سراحك، وتذهب إلى أولادك..».

ركع أبو الفتوح على ركبتيه وهتف:

ــ «أنا في عرضك يا بك..».

ــ «وبدون كفالة يا أبو الفتوح».

ــ «مرني.. وأنا عبدك..».

ــ «الجثة..».

تلفت أبو الفتوح حواليه زائغ النظرات، مكدور الذهن واستغاث بدموعه:

ــ «الرحمة يا بك».

ــ «أنت الذي ترحم نفسك».

ــ «أنا؟؟ كيف؟؟ ما بيدي شيء.. أنا تافه.. خائب.. سيء الحظ..».

رمقه الضابط بنظرات نارية:

ــ «لن تخرج إلا إذا أرشدتنا عن الجثة، وإلا فأنت متواطىء أو قاتل..».

ــ «قاتل؟؟ أنا؟؟

ــ «هذا إذا لم ترشدنا عن الجثة..».

لم يعد هناك جدوى من الضراعة والأيمان المغلظة، ولا مجال للتراجع عن الاعتراف بأنه شاهد الجثة، ، لكن الله وحده يعلم أنه بريء.. ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى لن يتخلى عنه هكذا أيقن أبو الفتوح، وقاده ذلك الاعتقاد إلى احتمال العثور على الجثة لو بحثوا عنها، فما دامت هناك جثة كما يقولون فلا بد أنها

ستكون في مكان ما، فأين يا ترى ذلك المكان؟؟ وشرح أبو الفتوح وجهة نظره تلك لضابط المباحث الذي افتر ثغره عن ابتسامة سعيدة ماكرة:

وقال أبو الفتوح:

ـ «فلنبحث عن الجثة».

ـ «هذا كلام صائب يا أبو الفتوح، لكن أين سنبحث عنها يا رجل يا طيب؟؟».

تفكر أبو الفتوح ملياً ثم قال:

ـ «في المنطقة المحيطة بالسيارة المسروقة أو في المقابر».

ـ «وأين نبدأ يا صديقي؟؟».

ـ «في.. في.. في أي مكان».

رنت صفعة قوية على وجه أبو الفتوح الذي وضع يده مكان الصفعة وهتف على الفور:

ـ «في المزارع يا بك..».

ـ «هيا بنا..».

وأركبه الضابط مغلل اليدين بالحديد إلى جواره في سيارة الشرطة، وعندما وصل أبو الفتوح إلى الدوار، تواكبت أفواج الفلاحين من كل مكان حتى أصبح «دوار العمدة» غارقاً في بركة من البشر.

وأخذ الناس يتحدثون في شأن القتيلة والقاتل، والشعائات تسري مسرى النار في الهشيم، والناس في شغف إلى المزيد من الأخبار.. لا يهم أن تكون تلك الأخبار صحيحة أو ملفقة..

إنها مثيرة ومسلية وهذا يكفي.. شيء ما في داخل النفوس، يمكن أن يكون نوعاً من الشماتة وخاصة إذا ما تعلقت الكارثة ببيت من البيوتات الكبيرة، أو بشخصية من الشخصيات البارزة ذات الثروة أو النفوذ، قد لا يفصحون عن ذلك، لكن هناك شعوراً عارماً وإشارات وملامح، تؤكد ذلك..

كان «الحاج يونس عبده» هو عامل التليفون في دار العمدة، والحاج يونس شخصية غريبة مثيرة، يجمع بين الصلاح والطلاح، والكذب والصدق، والوفاء والخيانة، بعض الناس في القرية يسمونه «إبليس»، والبعض الآخر يرى أنه داهية وذكي، وهذا كل ما في الأمر، خرج الحاج يونس عبده على الناس وقال:

ــ «يبدو أن الجريمة وراءها دوافع سياسية» لم يستطع الناس أن يفهموا شيئاً مما يقول، لكنهم أدركوا عن فطرة، ومن مجرد سماع كلمة «سياسية» أن الأمر جد خطير، وذاعت مقولة الحاج يونس بين الخلق، وسرعان ما علا صوت المثقفين من أبناء القرية، وخاصة طلبة الأزهر والجامعات، وسماسرة الانتخابات والأحزاب السياسية، وتلاطمت الأمواج، وتطاير الرذاذ، وحاول كل حسب وجهة نظره أن يحلل مقولة الحاج يونس، فمن قائل أن الباشا اللواء زوج القتيلة كان يزمع الترشيح في الانتخابات القادمة ضد الحزب «السعدي»، وزعم زاعم أن المسألة لا تعدو عن كونها صراعاً بين «السراي» ــ يقصدون الحاشية الملكية ــ وبين أعدائها من المعارضين، وهناك فريق ثالث أكد بالقسم المثلث أن الباشا اللواء كان من «البوليس

المخصوص» الذي أشرف بنفسه على تعذيب عدد من الموقوفين سياسياً إبان عمله في وزارة الداخلية قبل التقاعد، ويقال أن أحد الذين اعتقلوا في مؤامرة قد قُتل على يديه أثناء التعذيب.

وقال أحد طلبة الأزهر بكلية أصول الدين وهو «شعبان عبد اللطيف».

ـ «إن اللواء الشريجي باشا رجل فاسد فاسق، وأنه كان على علاقة بفنانة يهودية، كما كان على صلة وثيقة بالانجليز، وقدم لهم الكثير من المعلومات عن حركة المقاومة..».

كان الحاج يونس عامل التليفون يدخل ويخرج، والناس تنقض عليه إذا ما رأته، يصبون في أذنيه مائة سؤال وسؤال، ولم يكن هذا يغير مما عزم على البوح به، فالأسئلة لا تهم بالنسبة له، الأهم أن يدلي بالتصريحات التي يريدها، وقال يونس:

ـ «القضية كبرتْ جداً جداً..».

هتفوا في صوت مشحون:

ـ «يا للمصيبة؟؟».

ـ «ومندوب «السراي» سيصل».

أمسكت قطيفة، زوجة أبو الفتوح الشرقاوي، بتلابيبه ووجهها الشاحب يصرخ بالرعب:

ـ «وزوجي يا حاج؟؟».

قال لها باشمئزاز:

ـ «حشرة..».

لم تفهم، ولم تتح لها الفرصة لكي تستفسر، لأن يونس دلف إلى الداخل، وألقمت المسكينة طفلتها الصغيرة ثديها لترضعها حتى تصمت، وتكف عن البكاء، وابنها الأكبر ـ ثلاث سنوات ـ ممسك بطرف ثيابها لا يعي مما يجري شيئاً . .

انقلبت الدنيا رأساً على عقب في القرية، فمن يتصور أن التحقيق يستدعي طفلاً مثل شوقي عبد الفتاح، وزميله عبد القادر وأهلهما، وبسيوني المغازي وأسرته وأصدقاءه، إن الأمور تمضي على نحو يبعث على الدهشة، لقد تأكد الجميع الآن أن هناك جريمة ارتكبت، وعلى الذين زعموا أن أبو الفتوح كذاب أشر، أن يتراجعوا ويداروا وجوههم خجلاً، فالقضية صحيحة، وها هي أسماء أبطال المأساة تتضح، لكن ما هو الوزر الذي ارتكبه أبو الفتوح الشرقاوي؟؟ أهو رؤيته للجثة؟؟ أو تواطؤه في ارتكاب الجريمة؟؟ وما هي دوافعه إذاصح اشتراكه في القتل والإخفاء؟؟ من المستحيل أن تكون من الدوافع سياسة فهو لا صلة له بالسياسة ولا يفهم عنها شيئاً، الاحتمال الوحيد هو أنه أغرى بمبلغ من المال. من يدري؟ فقد يكو مدفوعاً إلى ذلك بنوع من الإكراه البدني أو المعنوي.

وقف شعبان عبد اللطيف بين أقرانه الذين يتلقون العلم وقال:

ـ «أرجح أن الحكومة ـ في ظل الأحكام العرفية ـ قد تلجأ لاعتقال عدد من السياسيين. .».

ــ «ومتى توقفت الاعتقالات؟؟ نحن شعب مقهور. . خرج يونس عبده مـرة ثالثـة أو رابعة أو خـامسة، وألقى بـالقنبلة الكلمة:

ــ «أبو الفتوح الشرقاوي يعترف. . ».

ــ «بماذا؟؟».

لم يرد يونس، وإنما انطلق إلى بيت العمدة ومعه ثلاث نسوة يحملن الطعام في الصواني على رؤوسهن، والعمدة يقف طويلاً هيبـلاً ــ كما يقولون ــ في وسط سـاحة الـدوار ينتظر مـائدة الدجاج والحمام واللحوم والأرز المحمرة ونفذت رائحة الشواء إلى أنوف الواقفين، وهتف رجل حافي القدمين:

ــ «كله من شقا المساكين. . حار ونار يا حكومة. . ».

هذا زمن الأعاجيب، ما الذي زج برجل مثل أبو الفتوح الشرقاوي في قضية غريبة كهذه، وهو لم يكن في يوم من الأيام قاتلاً محترفاً أو مأجوراً، ولا كان صاحب فكر سياسي، لم تتح له الفرصة ليقرأ جريدة أو مجلة، وليس لديه الـوقت ليحضر اجتـماعاً حـزبياً، أو يشـترك في مظاهـرة من المـظاهـرات. . المظاهرات دائماً في المدن، ولا يقوم بها في العـادة إلا الطلبـة والعمال. .

من الغريب أنهم سألوا أبو الفتوح في التحقيق:

ــ «هل تعرف عباس محمود العقاد؟؟».

ــ «هل هو من قريتنا؟؟».

ــ «أجب يا حمار بنعم أو لا. . ».

صاح أبو الفتوح بأعلى صوته:
ـ «لا . . ».
ـ «هل تقرأ لطه حسين؟».
ـ «لا أعرف القراءة ولا طه حسين».
ـ «هل سمعت عن الشيخ الباقوري؟».
ـ «أبداً . . ».
ـ «وحسن البنا . . ».
ابتسم أبو الفتوح:
ـ «الله أكبر ولله الحمد . . ومن منا لا يعرفه؟؟».
ـ «كيف؟؟».
ـ «رجل طيب . . من أولياء الله الصالحين، ويحب الفقراء . . ».
ـ «هل رأيته؟؟».
ـ «أبداً . . سمعت عنه . . ».
ـ «ممن؟».
ـ «من الشيخ شعبان عبد اللطيف . . إنه من الاخوان المسلمين، وكان يقول لي: تعال معنا يا أبو الفتوح . . وأنا أقول له أنا رجل . . أعني . . المقصود . . ».

ـ «تكلم يا ثور . . ».
ـ «أنا جاهل . . ».
مال ضابط المباحث إلى أذن العمدة هامساً:
ـ «احضروا شعبان عبد اللطيف . . ».

خرج يونس عبده، وقصد لتوه المكان الذي يقف فيه طلبة

العلم بالقرية، وأمسك بيد الشيخ شعبان، وطلب منه أن يتبعه، والطلبة لا يدركون معنى ما يحدث، ومضى شعبان مرفوع الهامة وسط دهشة الجمهور المحتشد، ودخل. .

ـ «ماذا جرى للبلد؟؟».

صيحة انطلقت لا يعرف أحد مصدرها، لكنها كانت دلالة على ما يختمر في النفوس من تساؤلات لا تجد الاجابات الشافية، لقد انشغل الناس عن حرب هتلر والانجليز، وعن التموين، وتوريد القمح للحكومة، وعن الدودة التي انقضت على محصول الذرة، وعن السماد الذي ارتفعت أسعاره، والأقمشة التي شحّت، والبطاطس التي لم تعد ترى في الأسواق، والفقر المدقع الذي حاق بالناس. .

ـ «أبو الفتوح جاسوس لهتلر. .»

عبارة أطلقها يونس عبده عامل التليفون في الدوار، ثم أسرع إلى الداخل. . ولولت قطيفة امرأة أبو الفتوح وامتزجت الكلمات بالدموع وهي تقول:

ـ «هو لا له في العير ولا في النفير. . والله العظيم كله تلفيق. . أحلف بالطلاق من ذراعي إنه تلفيق في تلفيق. . ؟».

دا فُجر يا ناس. . مال أبو الفتوح وهتلر؟؟ كلام فارغ يا عالم. . حكومة فاضية. .».

حين انطفأ نور الشمس، وعمّ القرية ظلام أواخر الشهر العربي، كانت الشرطة قد رحلت، ومعها أبو الفتوح وشعبان

عبـد اللطيفـ، وبسيـوني المغـازي، وغـيرهم، ذهبت قـافلة الحكومة وخلفت وراءها آلاف علامات الاستفهام لتضاف إلى مثيلاتها تحت أسقف المنازل، وفي الأزقة والحارات العتيقة وعلى شواطىء الترع، وفي اليوم التالي حضر فريق من العمال تحت حراسة الشرطة ينبشون القبور، ويحفرون في الأراضي الزراعية بجوار «بحر العباسي»، كما أحضروا معهم مجموعة من الكلاب المـدربة بـالاضافـة إلى عـدد من المخـبرين الـذين أثبتـوا في الأسواق، وأماكن التجمعات كالمقاهي وغرز الحشيش وقراء القرآن على المقابر والأضرحـة، ودراويش الطرق الصـوفية، لكنهم لم يعثروا للقتيلة على أثر. .

* * *

الغريب في الأمر وما أكثر ما ظهر في القضية من غرائب، أن أبو الفتوح الشرقاوي اعترف تفصيلياً بأنه هو الذي قام بخنق عنايات البجيري، وأنه تقاضى مقابـل ذلك مـائة جنيـه عدّاً ونقداً، لكنه لا يعرف أين ذهبوا بالجثة، ولا يعرف الأشخاص الذين كلفوه بالمهمة، ودفعوا له الثمن. .

فضيحة على الملأ

يؤكد «يونس عبده» وجود تحريات تثبت أن الأستاذ شعبان عبد اللطيف الطالب الأزهري، كان يتكلم كثيراً عن إقامة الحدود كجزء من الشريعة الإسلامية، وكان يركز على أهمية إقامة «حد الزنا» وهومائة جلدة لغير المحصن أو غير المحصنة، لكنه يصل إلى حد «الرجم» بالحجارة حتى الموت بالنسبة للمحصن قالوا له:

ـ «ومن المحصن يا شيخ؟؟».

قال:

ـ «المتزوج أو المتزوجه، لأن الزنا في هذه الحالة يكون أكثر بشاعة.. لذا فالعقوبة الموت».

وكان الفلاحون يستمعون إليه في اهتمام ويتساءلون عن عدم قيام الحكومة بأداء هذه العقوبة الرادعة وخاصة أن بالبلد أعداداً كبيرة تستحق الرجم، وأن ثلاثة أرباع القوات البريطانية في مصر إن لم يكن جلهم يقترفون جريمة الفحشاء بشتى الطرق، وهم يستحقون الجلد والرجم.

وبعد ذلك الاستعراض يهمس الحاج يونس قائلاً:

ـ «هناك دلائل تشير إلى أن شعبان عبد اللطيف قد كرر

القول أنه ما دامت الحكومة لا تريد إقامة شريعة الله، فعلى الشعب المسلم أن يتولى ذلك.. ومن المرجح لدى المحققين أن شعبان هو الذي أفتى بقتل عنايات هانم البجيري وأن أبو الفتوح الشرقاوي هو الجلاد الذي أقام الحد مقابل مائة جنيه، وقد استغل شعبان براءة أبو الفتوح وطيبة قلبه وفقر حاله.. وهناك شاهد اعترف بأن أبو الفتوح قال: «يا سلام.. هل هناك أحسن من ذلك؟؟ نُدخل الجنة.. ونأخذ مائة جنيه مكافأة حلالاً..».

ويستطرد الحاج يونس في رواياته زاعماً أن شعبان يعرف قصة انحراف «عنايات هانم» منذ فترة، فهو على اتصال بشعبة الاخوان المسلمين في طنطا وفي المراكز، ويجتمع مع الأعضاء اجتماعات دورية، يحضرها الشيخ حسن البنا أحياناً، وأن هناك نشرات دورية تصل إلى شعبان تباعاً فيها الكثير من الأخبار والبيانات والأوامر الحزبية.

وفي أحد الأيام خرجت إحدى الصحف الحزبية بأخبار مثيرة عن الجريمة، وذكرت بعض التفاصيل الغريبة، لكنها لم تذكر الأسماء صراحة، الغموض في النشر كان أفعل في انتشار الفضيحة، وتناثر الاستفسارات هنا وهناك، حتى أصبحت أسماء المتورطين معروفة ولم ينشر من الصور سوى صورة «أبو الفتوح الشرقاوي» حيث كتبت الصحيفة الحزبية تحته عنواناً بارزاً يقول «ماذا وراء هذا الرجل من أسرار؟؟»، ولم تقف الصحيفة عند هذا الحد، بل أكدت أن المتهم الأول (أبو الفتوح) إذا أدلى باعترافات صحيحة كاملة، فلسوف تسقط رؤوس،

وتذل نفوس، وينكشف المستور، وتفوح رائحة المستنقعات الآسنة التي يسبح في غفها بعض أدعياء السياسة، وتجار الوطنية، وأذناب الاستعمار..

ومن الطبيعي أن يأتي رجال الأمن ليفتشوا منزل شعبان عبد اللطيف، ويستولوا على ما فيه من كتب ومخطوطات مما أثار مزيداً من الذعر والحيرة.

كانت أعصاب القرية مشدودة متوترة، وغموض الموقف يوحي بالمزيد من القلق، ومع ذلك فهم ينامون بعد العشاء، ويستيقظون في الفجر كما جرت العادة، ويذهبون إلى حقولهم، حتى في أيام العيد المباركة، لا يستطيعون ترك بهائمهم بدون طعام، وزروعهم بغير ري، وفرحة العيد تكون في القلوب كما يقولون.

ودعا الشيخ «المداح» المتصوف الأول في القرية إلى عقد «حضرة» عاجلة، آملاً في أن يتفرغ الناس لذكر الله، وقراءة القرآن والأدعية و«المنظومة»، لعله سبحانه وتعالى، يكشف الغمة، ويزيل الكربة.

ومن أعجب الأمور أن «يونس عبده» أحد الدراويش المرموقين، لماذا؟؟ لأنه حسن الصوت لحد ما، وهو الذي يترنم بالمدائح النبوية التي يتطوح الذاكرون على إيقاعاتها، ويهيمون في دنيا الوله والعشق.

كان يونس عبده ينشد أثناء «الحضرة» أبياتاً من الشعر للإمام البرعي في مديح الرسول ويقول:

يــا راحــلين إلى «مــنى» بــجــيــاد
شــوقــتــمــوا يــوم الــرحــيــل فـؤادي
سرتــم، وســار دلــيــلكــم يــا وحــشــتي
الحــب أرقــني وصــوت الحــادي
فــإذا وصــلتــم ســالمــين فــبــلغــوا
مــني الســلام إلى الــنــبــي الهــادي

ولكلمة الرحيل ومشتقاتها في قامـوس الفلاحـين إيحاءات وظلال عجيبة، تسيل الدموع، وتسرع بنبض القلوب، وتطير بهم في سماوات عالية تخفق بالطهر والنقاء والسلام.. عندما ينشد الحاج يونس ينسى الناس مقـالبه ومفـاسده، فـلا تبدو أمامهم سوى صورة الرجل الضارع الذاكر الذي تسيل كلماته وألحانه رقة وعذوبة، وتترقرق الدموع في عينيه وجداً وهياماً، وتضيء ابتسامته الحلوة على قسمات وجهه القمحي، حتى لكأنه وجه ملاك..

بعـد أن انتهى «الذكـر» جلسـوا مـع شيخهم يتنـاولـون الطعام، غالبية الطعام كانت من الثريد والحساء، وقليله كان من اللحم والعظام، لكنهم شبعوا وحمدوا الله، وعلى الرغم من أن الـرؤوس ثقلت تحت وطأة النـوم المنـاور، إلا أنهم بقـوا يستمعون إلى «وعظية» من الشيخ المداح الذي أخذ يشرح لهم معنى قوله تعـالى: ﴿عليكم أنفسكم﴾، فالإنسـان ــ حسبما يقـول ــ عليه أن يهتم أولاً بـذكر الله، ثم الجـد في تحصيل الرزق، ورعاية العيال، والإحسان إلى الجار، وعدم الانشغال بأمور السياسة، ومشاغل الـدنيا التي يـزينها الشيـطان الذي

يستهوي النفوس الضعيفة بوسـوساتـه، ويبدو أن مثـل هذا الكلام الأخير لم يجد قبولاً لدى بعض الشباب الذين يتلقون العلم في المدارس والجامعة والأزهر، إذ قال أحدهم:

ــ «ألا ترى يا مولانا أن مستقبل الأمة مـرتبط بالسيـاسة المتبعة، وأن أسلوبها هو الذي يقرر مصيرنا؟؟».

بان الغضب في وجه الشيخ، وهتف بأعلى صوته:

ــ «الله. . ».

فرددها وراءه الدراويش، وعاد الشيخ يقول:

ــ «لعن الله السيـاسـة. . وسـاس ويسـوس ومـا اشتق منها. . ».

ــ «لكن. . . . ».

ثار الشيخ قائلاً:

ــ «لا تخاطىء هكذا. . عليك أن تستمع. . ».

وساد قليل من الهرج والمرج، فرفع الشيخ يده ليصمتوا، ثم قال:

ــ «من قال أن ما نراه ونسمعه من السياسة؟؟ السياسة هي الإيمـان بالله، والصـلاة على مختـاره ومصطفـاه، والبعـد عن الرذائل، والتمسك بالفضائل. . ».

ثم توقف الشيخ فجأة وناد:

ــ «أنشد يا يونس. . ».

هب الحضور واقفين، وترا-ـوا صفوفاً كسابق أمرهم، وبدأ الشيخ بالتصفيق الايقاعي، إنها نغمة يعرف يونس كيف يختار

لها القصيدة المناسبة وانطلق يونس يغرد «بالبردة» للإمام البوصيري:

أمن تذكّر جيران بذي سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق في الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا
وما لقلبك إن قلت استفق يهم

علا صوت النشيج والبكاء بين الذاكرين، وانسكبت دمعات على خد الشيخ، فانصرف الطلبة وأحدهم يغمغم:

ــ «والله لا يعرفون معنى كلمات البوصيري».

رد عليه شاب صديق متحفظ:

ــ «لا يهم أن يعرفوا معاني المفردات، لكنه هناك حياة وصدى ينساب في أرواحهم لا يمكن التعبير عنه بكلمات محددة..».

* * *

ما أكثر الغرائب التي تفاجىء القرية بدون سابق إنذار لقد دهش الناس حينما شاهدوا طالب العلم الذي قبض عليه «شعبان عبد اللطيف» يمشي في الشارع.. كانت تبدو عليه الجدية، ملتزماً بالصمت، لا يجيب على التساؤلات، عندما يقول له أحد «حمداً لله على سلامتك» يهز رأسه ويشكره بكلمات قصار.. ويجد أصحاب الفضول أنفسهم مضطرين للذهاب

إلى «يونس عبده» مصدر الكثير من المعلومات حتى أنهم أطلقوا عليه اسم إحدى وكالات الأنباء الشهيرة (رويتر).

ـ «يا يونس.. يا «رويتر».. إحك لنا عن شعبان يهز يونس رأسه في سعادة وافتخار، ويضيق نظراته وينظر إلى بعيد، ثم يروي لهم ما يشبع فضولهم.. خلاصة ما قاله عن شعبان أنه تعرض لآلام نفسية وجسدية وتهديد ووعيد، لكن الذي أنقذه هو أن المرشد العام للاخوان المسلمين ذهب بنفسه ومعه اثنان من كبار المحامين وقابلوا وزير الداخلية، ثم ذهبوا إلى سراي النيابة، والحكومة في ظل الحرب الدائرة لا تريد إثارة البلبلة، وخاصة في أوساط الجماعات ذات الثقل والفاعلية كالإخوان، ويبدو أن التحقيق لم يسفر عن شيء بالنسبة لشعبان عبد اللطيف، ولم يجدوا شبهة ما تضعه موضع الاتهام..

صرخت زوجة أبو الفتوح الشرقاوي ملتاعة، ورفعت يديها لله شاكية، وكشفت عن رأسها تدعو على الظلم والظالمين، وتندب الفساد، وعدم المساواة، لأنه «لو كان لأبو الفتوح ظهر، لما ضربوه على بطنه» كما المثل العامي، لقد وجد شعبان من يتدخل من أجله، وينقذه من بين براثن الشرطة، لكن أبو الفتوح ضائع.. لا سند له، ولا كبير يحميه.. ولم تستطع أن تتفهم طبيعة الموقف، كل ما يشغلها هو: لماذا يفرج عن شعبان ولا يفرج عن أبو الفتوح؟ هل لأن شعبان متعلم، وأبو الفتوح جاهل، أم لأن شعبان رزقه الله بالمحامين، وزوجها ليس لديه ما يكفي لتوكيل محام؟؟

أشار عليها بعض الناس أن تكتب شكوى أو التماس لجلالة

الملك المفدى فاروق الأول ملك مصر والسودان، اشاحت بوجهها في غضب وقالت:

ـ «تريدون أن يأخذوني أنا الأخرى للسجن؟؟».

وقال البعض لها ابعثي بعريضة إلى رئيسي مجلس النواب والشيوخ عن طريق نائب الدائرة.. علقت قائلة:

ـ «النائب لا يأتينا إلا أيام الانتخابات.. ولا نعرف له بيتاً..» ووجهتها جارة مخلصة إلى الذهاب ليلاً إلى «الخروبي» الذي اشتهر بكتابة التعاويذ، وشفاء المرضى، وفك أسر المأسورين، وزواج العوانس، وترسيخ الحب بين القلوب المتنافرة، وفك «المربوطين»، وحبل العقيمات من النساء، لكن قطيفة لم ترتح لمثل هذا التوجه، إيماناً منها بأن الحكومة يبدو أنها محصنة ضد السحر والجان، ولعلها مكونة من أناس كانوا أصلاً ينتسبون إلى دنيا العفاريت والشياطين.

فكرت «قطيفة» ماذا تفعل لزوجها؟؟ لا يصح أن تبقى هكذا تبكي وتندب حظها.. لا بد أن تقوم بواجبها حتى ولو ضحت بنفسها.. ولتبحث عن أي طريق.. وثب إلى ذهنها «يونس عبده» بقامته النحيلة المديدة وبعيني الثعلب اللتين تعلوان وجهه.. هذا الداهية يستطيع أن يبحث لها عن حل.. إنه من الحكومة، ويعرف طرقها الملتوية، وأساليبها الماكرة..

وذهبت إليه

ـ «أنا في عرضك».

ـ «كنت أعلم أنك ستأتين».

ـ «وقد جئت.. انجدني..».

ـ «بالطبع.. ولكل شيء ثمن..».

ـ «ها هي روحي..».

ـ «لا أريد روحك.. أقل من ذلك بكثير..».

مرت نسمة رجاء بقلبها المحزون فخفق خفقة عابرة من الفرح، خيل إليها أن الرجل قادر على حل الطلاسم، ويمكنه أن يرجع إليها زوجها...

وبمشورة من الحاج يونس باعت قطيفة القراريط الخمسة التي ورثتها عن أمها بمائة جنيه، ووقعت على عقد البيع، لم تتسلم من الثمن قرشاً واحداً، فقد أخبرها يونس أنه مسافر لتوه إلى القاهرة ـ أم الدنيا ـ ليبحث لها عن محام شهير ليترافع عن زوجها، فالقضية ـ كما أفهمها ـ ليست من النوع العادي، ولكنها تمت بصلة إلى السياسة، وكان زوجها «مخلب قط» في جريمة القتل، ولم تفهم قطيفة كثيراً مما قاله لها، الذي يهمها هو أن يفرج عن زوجها، بل إن قطيفة لا تعرف اسم المشتري، ولم تدرك أنه هو نفسه يونس، فهذه القطعة من الأرض كانت مؤجرة لأحد الفرحين، ولا تحصل من ورائها إلا على جنيهات قليلة.. فما أرخصها من تضحية تعيد إليها أبو الفتوح.

وسافر يونس إلى القاهرة ـ حسبما قيل ـ وبقي هناك يومين، ثم عاد، دون أن يدري أحد ماذا فعل، لكنه طمأن قطيفة وأكد لها أنه دفع ١ المائة جنيه لمحمد الهريدي بك من أشهر المحامين، وأنه دفع من جيبه الخاص مصروفات السفر،

ويقشيش الكتبة، وتكاليف الاقامة في الفندق، مع أن البعض من أهل القرية أشاع أن يونس لم يغادر القرية، وكان محتجباً في الغرفة التي تعلو بناء بيته، وإن قال آخرون بأنه ذهب إلى زفتي عاصمة المركز، وزعم آخر أنه أحيى ليلة المولد في قرية من قرى الشرقية، والعلم عند الله.

لكن الملفت للنظر أيضاً أن شعبان عبد اللطيف اختفى من القرية فجأة ذات صباح قبل مشرق الشمس، ولا يعلم أحد حتى من أصدقائه الخلّص أين ذهب، لكنه لوحظ أن أسرته تبدو في حالة هدوء واطمئنان، مما يؤكد أن اختفاءه لا صلة له بالشرطة أو بأي شيء آخر يبعث على القلق.

ولم تستطع غزوات هتلر، وسقوط باريس بين يديه، وأخبار الغارات الالمانية المدمرة على بلدان الحلفاء أن تثير الاهتمام في القرية التي كانت بالأمس آمنة، فأصبحت اليوم تغلي كالمرجل، على الرغم من أن أبو الفتوح ليس بالشخصية الهامة.

وبقيت قصة عنايات هانم البجيري أو «ع. ب» كما تطلق عليها الصحف المعارضة مثار الحوار، ومادة للصحف، ومجالاً للخيال والتخمينات والتحليلات، كما أن زوجها «الشريجي باشا» اعتزل في قصره لا يزور ولا يزار اللهم إلا إذا جاءه أحد رجال الشرطة الكبار، أو وكيل من وكلاء النيابة، أو شخصية بارزة من شخصيات الحزب، أو صراف العزبة التي يمتلكها والمحاسب الذي يدير أعماله، ولقد علم الشريجي باشا أن زوجه عنايات هانم قد سحبت من رصيدها بالبنك مبلغاً كبيراً

من المال قبل اختفائها بيوم واحد، ولقد تردد مراراً قبل أن يكشف عن هذه الحقيقة لفريق التحقيق في القضية، وهو في الواقع غير مهتم بموضوع المال، فلديه منه الكثير، ولكن اهتمامه الأكبر كان يتعلق بتلك الفضيحة الغامضة التي هزت أركان مجده الشخصي والسياسي، وتكاد تلوث تاريخه كله، وتجعله مضغة في الأفواه، بل إنه رجح أن الحزب الذي ينتمي إليه قد يفكر في إصدار قرار بفصله، مما سيقضي على مستقبله السياسي وطموحه الكبير إذا حدث ذلك لا قدر الله . .

قال اللص العريق «بسيوني المغازي» في إحدى جلسات تدخين الحشيش التي يأوي إليها مساء كل ليلة أنه رأى امرأة يشك أنها عنايات هانم تسير على شاطىء النيل في «المنصورة»، وأنه ما كاد يقترب منها ليتحقق من شخصيتها حتى دلفت إلى سيارة يقودها رجل وسيم تبدو عليه النعمة والثراء، لكن الناس اتهموا «بسيوني المغازي» بالكذب، وحجتهم في ذلك أنه لم يسبق له رؤية عنايات هانم، لكنه اعترض مؤكداً أنه رآها أكثر من مرة في قصرها وفي الشارع، كما رأى صورها في المجلات والصحف، وأنهى حديثه قائلاً: «وهل هناك من لا يعرف عنايات هانم؟»

أما الشيخ المداح فهو منزعج جداً لما يجري في قريته، لأنه ببساطة شديدة صرف الناس عن ذكر الله، إنه ضرب من اللهو في رأيه، ويكاد يصرفهم عن تحصيل الرزق، ورعاية أسرهم، وكان الذي ضايقه أكثر أن رواد المساجد في القرية لا يكفون عن الحديث في أمر الفضيحة، وطلبة العلم تركوا كتبهم

ومراجعهم وأخذوا يلهثون وراء الأخبار، وأن يونس عبده هو الآخر انغمس حتى أذنيه في القيل والقال، ولكم حذره الشيخ ألف مرة عن ارتياد تلك المسالك الوعرة، وفرض عليه العقوبات، لكن يونس لم يرتدع، مما دعا الشيخ المداح في النهاية أن يصدر أمراً بوقفه عن العمل كدرويش، وهو أمر صعب لأن البديل عنه في الانشاد الديني أثناء عقد حلقات الذكر لا يضاهيه في الصوت والامكانات الفنية الأخرى، وحفظ النصوص، والتجاوب مع الحركة. .

لقد كان الشيخ يعرف نقائص يونس، لكنه كان ينظر إليه كفنان، وما أكثر ما ينفلت الفنانون في كل مكان على ظهر الأرض، لكن أمل الشيخ كان كبيراً في أن يستقيم يونس يوماً، ويتخلص من نقائصه وهفواته، والله على كل شيء قدير، لكن الأمر زاد عن حده، وأصبح يونس مثلاً سيئاً، يتعدى فساده دائرة نفسه وأسرته إلى محيط الشيخ وجماعته، فلم يكن هناك مفر من الحسم، والغريب أن يونس برغم قرار الوقف كان يذهب إلى الشيخ المداح ويقبل يديه في ضراعه، فيسحب الشيخ يده منه في غضب، ويطرده منتهراً، لكن يونس يطاطىء رأسه، . ويظل رابضاً في مكانه وهو يتمتم:

ــ «حاضر. . حاضر. . أمرك يا سيدنا الشيخ. . الذي يأتيني منك مقبول. . قل في ما شئت. . أنا أستحق. . وأنا معترف» بل إن يونس كان يصر على حضور حلقات الذكر كأي فرد عادي، ويرفض مغادرة المكان عندما يطرده الشيخ، ويظل باقياً حتى النهاية، برغم مقاطعة الجميع له، وازورار الدراويش

عنه، لكنه لم يستطع أن يستعيد موقعه في الإنشاد والمديح لرسول الله.

* * *

في ليلة سوداء صامتة، سمعت «قطيفة» طرقات على بابها، قامت في تكاسل لتعرف من الطارق، ودهشت إذ رأت شعبان ينتصب قبالتها في الظلام، هتفت في دهشة:

ـ «أنت؟؟».

ـ «نعم..».

ـ «لماذا لم يخرج أبو الفتوح معك؟؟».

ـ «لكل شيء ميعاد».

ـ «المساكين تأتي مواعيدهم متأخرة.. بعد أن يفيض الكيل، وتجف الدموع..».

ـ «هو قادم إليك».

ـ «كيف؟؟».

ـ «أنا أعرف..».

برغم شكوكها إلا أن قلبها دق من الفرح، شعبان عبد اللطيف رجل صالح، ولم تعهد عليه كذباً إنها تعايش اليأس مذ رأت زوجها مكبلاً بالأغلال، وآثار السياط على وجهه وبقية جسده، لكنها كانت واثقة أن أبو الفتوح بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب، وأن الله لن يتخلى عن المظلوم، وزوجها مظلوم خائب سيء الحظ، يبيع الكلام الفارغ مع ما يبيعه من فواكه وخضروات وعيدان قصب، لكنه

طيب القلب لا يؤذي أحداً.

قالت:

ـ «وكلت له محامياً كبيراً من مصر».

ـ «لا يهم».

ـ «لقد بعت أرضي..».

ـ «خدعك يونس..».

ـ «ساعدني حين تخلى عني الناس».

ـ «هناك جهات لها احترامها ووقارها قد تبنّت القضية ولسوف ينكشف المستور، وتبرأ ساحة زوجك».

كان كلامه الأخير أصعب من أن تفهمه، وإن أدرك عقلها أن فيه ما يطمئن..

ـ «أريد أن أفهم..».

ـ «لن أزيد.. وأرجو ألا تخبري أحداً بما قلته لك الليلة.. كوني مطمئنة.. وما نحن بالذين نتخلى عن مظلوم..».

وانصرف متلفعاً بالليل، تاركاً قطيفة فاغرة فاها، محملقة العينين، لا تستطيع أن تستوعب الرسالة ثم ابتسمت.. وانعكست أضواء النجوم الخافتة على وجهها الشاحب الذي لم يعرف الابتسام من زمن.. وانطلقت على الرغم منها زغرودة زلزلت أمواج الليل الراكدة..

الدليـل الجديد

الخبر الذي برز إلى الساحة الملتهبة أثار موجة عارمة من الفضـول المجنـون، ففي مكـان نـاءٍ قـرب مـدينــة «المحلة الكبرى» ـ قلعة صناعة النسيج في مصر ـ عثر الناس على جثة لامرأة عارية مقطوعة الرأس، عارية تماماً، لـوحظ أن الجثة أيضاً تميل إلى البياض، صاحبتها ذات حيوية وجمال، ولم تفلح أية جهود للعثور على الرأس، أهالي القرى المجاورة لم يبلغوا عن اختفاء أحد، أو شبهة جريمة، وكذلك سكان مدينة المحلة التي تعج بالآلاف المؤلفة من العاملين والأسر والزائرين، ذكر يونس عبده أن الشرطة سوف تأتي بأبو الفتوح للتعـرف على الجثة . .

قالت قطيفة :

ـ «خذوني إلى هناك لأرى زوجي» .

وأخذت تصيح وتلطم، وداهمتهـا الوسـاوس، إذ أنه من المحتمل أن تتحول الخرافة والتلفيق أو الأكاذيب إلى جريمـة حقيقيـة وقعت، ولم الوسـاوس؟؟ هـا هي الجثـة المقـطوعـة الرأس، وهرع رهط كبير من سكان القرية إلى المكان الذي قيل أن الجثة وجدت به وقيل أن الجثة لعنايات هانم البجيري، والذي يؤكد ذلـك هو يـونس عبده، وخـرج الناس أفـواجاً

كالسيل في اتجاه المحلة الكبرى وكأنهم يتسابقون إلى مولد السيد البدوي، وعلى الرغم من تحذيرات الشيخ المداح لدراويشه بألا يذهب أحد مع الذاهبين، إلا أن البعض منهم لم يستطع مقاومة الإغراء، فما في كل يوم يقتل إنسان أو إنسانة على هذا النحو من الأهمية.. وبعد عناء شديد وصلت الجموع المتلهفة إلى مكان الحادث، لكنهم لم يجدوا إلا رجالات الشرطة منبثين في كل مكان ويحاصرون الموقع الذي عثر فيه على الجوال المحتوى على الجثة.

شهوة عارمة تغلي في النفوس لمعرفة الحقيقة، لكن خيبة الأمل تجلت كصفعة على الوجوه المتلهفة، لقد قيل أن الجثة نقلت إلى المشرحة، لكي يقوم الطبيب الشرعي بفحصها وكتابة تقرير «مفصل عنها، وذكر رواة الأخبار أن مصوري الصحف أتوا منذ وقت مبكر، وقيل أيضاً: أن اللواء المتقاعد، والحزبي المعروف الشريجي باشا قد حضر لمعاينة الجثة، وأن دموعه انسابت بغزارة من خلف نظارته السوداء حتى بللت شاربه الكث الأبيض، لكن لم يظهر أحد ليؤكد أنه رأى ذلك المشهد المثير بعينيه..

جلست قطيفة تبكي وتصيح تارة، وتضع التراب والطين على رأسها تارة أخرى، فهي تريد رؤية زوجها، ولا أحد يدلها على الطريق.

في المساء عاد الركب الحائر إلى القرية دون أن يروي ظمأه إلى المعرفة، كل شيء مرهق وغامض ومثير أما قطيفة فقد

هامت على وجهها في شوارع المحلة الكبرى تسأل عن زوجها «الحزين» هكذا تسميه..

وأخيراً أفادها شرطي في مركز المحلة ينتمي أصلاً إلى أهل القرية، بأن زوجها جاء في حراسة مشددة، وأنه شاهد الجثة، وأنه.. كان مشفقاً عليها، واستدرك مؤكداً أنه لا يعرف شيئاً عما أدلى به أبو الفتوح من أقوال، لأن التحقيق كان يجري طي الكتمان، وأن رجالاً من الكبار قدموا من القاهرة للاشراف بأنفسهم على المعاينة والتحقيق، لدرجة أن مأمور مركز المحلة نفسه لا يعرف شيئاً عن تفاصيل الموضوع.

يونس عبده أشاع أن أبو الفتوح تعرف على الجثة، واعترف بأنه هو الذي شارك في ارتكاب الجريمة وقطع الرأس، لكنه لا يعرف أين ذهبوا بالرأس ولا بالجثة، ولو كان يعرف المزيد لأفصح عنه.

نشرت الصحف الخبر في صفحات الحوادث، لكنهم لم يذكروا عنايات هانم بالاسم، ولا زوجها كذلك، لكن التلميحات التي بين السطور وشت بما خفى، ونشروا صورة كبيرة لأبو الفتوح، وكتبوا تحتها «القاتل في قبضة العدالة» و«القاتل يدلي بأقوال هامة» وقبل أن يعلن تقرير الطبيب الشرعي أفاضت الروايات المكتوبة والمسموعة عن أطراف من المأساة المشوقة، وعن قصة غرام، وليال حرام، وكؤوس وفسوق وفجور، وأموال ومغامرات وألاعيب سياسية..

جلس يونس عبده وسط مجموعة من رجالات أهل القرية في

الليل، وقد ظهرت على وجهه سمات الجدية والثقة، وقال:

«علمت ـ والعهدة على الراوي ـ أن عنايات هانم عندما هربت مع عشيقها، وهو ضابط شاب من تلامذة زوجها الباشا المحترم، تنكرت في زي امرأة ريفية تضع على وجهها الخمار الأسود.. كانت ـ مثلما يقولون ـ كالبدر خلف سحابة رقيقة جميلة.. سبحان العاطي الوهاب.. مال.. وجمال.. ودلال يا حبيبي.. اللهم استرها علينا يا رب وعلى نسائنا.. وكان الباشا كان الله في عونه قد اعتاد أن يغمض الطرف عن بعض تصرفاتها.. قد تخرج وتعود قبيل الفجر وربما تختفي يوماً أو يومين.. لم يكن أمامه سوى أن يكظم غيظه، ويرضى بالأمر الواقع.. وهكذا الباشوات أيها السادة.. يعرفون ويتجاهلون.. حساباتهم غير حساباتنا.. لا يهمهم سوى أن تمضي الأمور.. أي أمور.. في خفية وهدوء.. والتكذيب الرسمي كفيل بأن يقضي على أية شائعة، هكذا يعتقدون، والاشاعات كما تعلمون كثيرة.. والناس تعبوا من تكرارها وملاحقتها.. أليس مع أحد منكم سيجارة انجليزي؟؟».

ونظر يونس فإذا أمامه ثلاث علب من السجائر الانجليزية المعتبرة المهربة، تناول لفافة وأشعلها، ثم أشار عليهم أن يضعوا العلب أمامه، ففعلوا جذب نفساً عميقاً، ثم نفخه بهدوء وهو ساهم يفكر ويتلذذ.

استأنف يونس حديثه، وهم يستحثونه:

ـ «ما أجمل نكهتها!! هكذا السجائر الانجليزية

أما الكوتاريللي وحتى سجاير ملك مصر فلعنة الله عليها. . نعود إلى عنايات هانم، والعهدة على الراوي. . ».

قال بسيوني المغازي:

ــ «ومن هو الراوي؟؟».

ــ «اخرس يا بسيوني. . هذه أسرار دولة. . ».

واستطرد يونس، وقد بدا على وجهه شيء غير قليل من الضيق:

ــ «لا أحب المقاطعة. . «لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم». . هذا كلام الله يا جاهل. . المهم أن عنايات هانم طال غيابها هذه المرة. . ساوره القلق. . سأل عنها أهلها وأصدقاءها ومعارفها، وبث عيونه في أنحاء المدينة ، لم يعثر لها على أثر، لعب الفأر في عبّه. . عاودته حاسة رجل الشرطة القديم الذي تبنىٰ حياته على الشك وسوء الظن. . تدارس الأمر بروية، أبلغ الأمر أخيرا للشرطة بعد أن استبد به القلق، وسارت الشائعات عن ظهور جثة عند بحر العباسي. . كان أبو الفتوح الشرقاوي هو أول الخيط. . تعلمون أنتم بقية ما جرى. . والمحامي الذي وكلناه عن أبو الفتوح في القاهرة تجمع لديه العديد من الخيوط الأخرى. . الخيوط تشابكت وتعقدت. . المسؤولون لا يعرفون لهم رأساً من رجلين. . اعترافات أبو الفتوح متناقضة، تحريات الشرطة متضاربة. . في المحضر الأخير كانت أقوال أبو الفتوح غريبة. . وسأسرد على مسامعكم موجزاً عنها.

ـ «هل هذه الجثة التي شاركت في قتلها يا أبو الفتوح؟».
ـ «هي نفسها يا بك..».
ـ «وكيف تعرفت عليها؟؟».
ـ «سبحان الله.. رأيتها بعيني هاتين حية.. وميتة..».
ـ «والرأس يا أبو الفتوح؟؟».
ـ «يميناً بالطلاق بالثلاثة لا أعرف أين ذهبوا بها».
ـ «ومن الذي أتى بالجثة إلى هذا المكان؟؟».
ـ «علم هذا عند الله..».
ـ «هل لك أقارب في هذه المنطقة؟».
ـ «أنا مقطوع من شجرة يا سعادة البك».
ـ «ولا لزوجك قطيفة؟؟».
ـ «آه.. أين أنت يا قطيفة يا أم اليتامى..».
ـ «أجب على السؤال يا أبو الفتوح لعنة الله عليك..».
ـ «لا قريب ولا نسيب لها..».
ـ «كيف تفسر وجود الجثة هنا؟».
ـ «لا أعرف في التفسير يا بك..».
عندئذ تدخل بسيوني المغازي وقال:
ـ «من يصدق أن الجثة تبقى على حالها طوال هذه المدة دون أن تتعفن؟».

ارتج عقل يونس، ولم يستطع الإجابة على الفور، أخذت عيناه تتحركان بسرعة في محجريهما، وانشغل لحظات بإشعال سيجارة أخرى، ثم قال:

ـ «يحتمل أن تكون الجثة قد حفظت في الثلج، ثم إن

الدكتور الشافعي العائد من دراساته الطبية في إيطاليـا يقول أنهم يستطيعون الحفاظ على الجثث لمدة عام أو عامين أو أكثر في كلية الطب. . يا أخي الفراعنـة حنطوا الجثث وبقيت آلاف السنين. . والطب الشرعي هو الفيصل في مثل هذه الأمور. .

وهب يونس عبده واقفاً وهو يقول:

ـ «لن أكمل الحديث، فأنتم لا تريدون الحقيقة. . هـل أسرد عليكم ما تريدونه أنتم أم ما أعرفه أنا؟؟

إن كـثرة الأسئلة والتعليقـات تضـايقني. . أنتم متخلفـون جهلة وسفلة. . ».

أمسكوا بتلابيبه، وأقسموا عليه أن يبقى، وأكّدوا له أنهم يصدقون كل كلمة يقولها، وأنهم يعتذرون ألف مرة عما بدر من بسيوني المغازي، وتعهدوا ألا يقاطعوه مرة أخرى، وطلبوا من بسيوني أن يصمت أو ينصرف، فما كان منه إلا أن أنتزع نفسه من بينهم، وانصرف وهو يبرطم، وغمغم يونس قائلاً:

ـ «رح وخذ نفسين من الحشيش أفضل لك».

ـ «وأنت؟ ألا تحشش يا يونس؟؟».

وكادت تحدث معركة، لولا تدخـل أهل الخـير في تهدئـة الموقف، رغبة في سماع ما جرى من أحداث للست عنايات.

عاد يونس إلى الحديث:

ـ «يعتقد رجال المباحث أن أبو الفتوح في منتهى الذكاء، وأنه داهية من الدهاة لا يشق له غبار، وأن اعتقاد الناس بأنه

كـاذب ويهول الأمـور، ويخترع الـوقائـع، حيلة خبيثة منـه، وعملية مقصودة رسمت بذكاء ودقة. . إن من ذهبوا إلى البحر العباسي لم يجدوا فعلاً غير السيارة. . تلك حقيقة لا مراء فيها، لكن أقوال أبو الفتوح عن الجثة كان صحيحاً، وأنه حينما ذكر ذلك لأهل القرية كان يريد أمراً آخراً. . لا تسألوني عن هذا الأمر الآخر، لقد سمعت عنه من أحد الكبار، لكنه لم يفصح لي عن شيء، رأس القتيلة ستـظهـر. . متى؟؟ في الـوقت المناسب. . ألم أقل لكم أن كل شيء مرسوم بعناية، نحن في زمن الأعاجيب، وفي بلد الأعاجيب. . أصبح الكذب صدقاً، والصدق كذباً، ويصعب التفرقة بينهما، وما يقال لا يقال لوجه الحق، ولكن ليخدم هدفاً، ويؤدي مهمة.

ولقد علمت أن الحكومة سوف تعطي «أبو الفتوح» حقنة يسمـونها «حقنـة الاعـتراف». . نعم دواء معـين يعـطى في الوريد، وسرعان ما ينام الإنسان، وعندما يبدأ في الافاقـة، يجيب على كل الأسئلة بصدق تام، إن هتلر يستعملها في المانيا ضد المتآمرين عليه، وعلمت أيضـاً أنهم سوف يستخـدمون أستاذاً من أساتذة «التنويم المغنطيسي» حتى يخرج أبو الفتوح كـل مـا عنـده من أسرار، وتلك هي المـرحلة الأخـيرة في التحقيق. . ».

فوجىء الجالسون بمقدم الشيخ المداح وحوله نخبة من أبنائه الدراويش، عندما رآهم يونس عبده ارتج عليه، حتى لكأنه فقد النطق، وهب واقفاً في ذعر: كانت لحية الشيخ ترتجف من الغيظ والغضب، ومضى الشيخ وفي يمينه عصاه المعوجة، ثم

قصد لتوه يونس، وأخذ يضربه على ظهره ويصيح:

ـ «إبليس أيها الملعون.. متى تكف عن هذا الدجل.. متى؟؟؟ ألا تتوب أبداً؟؟؟».

ركع يونس على ركبتيه، وأمسك بيد الشيخ يقبلها ويقول ودموع تنسكب حقيقة من عينيه:

ـ «أمرك يا مولانا.. ضربك لي شرف أي شرف إنني أفتخر بذلك.. اضرب واضرب.. فأنت أستاذي وشيخي وإمامي.. ولسوف أطيع أمرك.. ما قلت لهم إلا ما سألوني عنه..».

يقول الشيخ وهو يلهث، والعرق يتصبب من جبينه، ويبعد يديه عن يونس:

ـ «صرفت الناس عن ذكر الله، تصنع لهم من الأباطيل حياة.. شأنك في ذلك شأن أصحاب الأحاديث الموضوعة.. أغرب عن وجهي..».

فر يونس مذعوراً، كان يجري بخطاه الواسعة، وعوده الناحل الطويل، وطرف ثوبه الأبيض يتطاير من الخلف، وبدت الطاقية الهرمية التي يضعها على رأسه وكأنها قبعة شيطان خرافي الشكل..

ثم التفت الشيخ إلى جمهرة الواقفين قائلاً:

ـ «تستمعون إلى أساطير يونس وخرافاته وكأن على رؤوسكم الطير، وليتكم تنصتون إلى كلام الله، ودروس

العلماء مثلما تنصتون إليه.. مـاذا جرى لكم أيهـا الناس.. «سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد..» امرأة ماتت أو لم تمت.. ماذا في ذلك؟؟ الحرب تحصد الملايين.. والناس يموتون ويولدون كل يوم.. هل صليتم العصر؟؟ لو كان الأمر بيدي لأقمت عليكم الحدود الشرعية.. اذكروا الله يذكركم، واستغفروه يغفر لكم..».

* * *

ظل البحث جارياً عن الرأس المفقودة دون جدوى، وتقرير الطبيب الشرعي لم يأت بجديد يذكر، كل ما في الأمر أنه ذكر بعض الأمـور التي تتعلق بعمـر القتيلة، وأنها ليست عـذراء (ثيب)، وليس في الرحم ما يدل على وجود حمل، وأن العينات التي أخذت من الأحشاء ومناطق الجسم الأخرى استبعـدت التسمم أو الغرق، أو النوبة القلبية، ولم يستطع أن يقدر المدة التي مضت على الوفاة لاحتمال حدوث اجراءات للحفظ (وهذه نقطة هامة بالنسبة لرجال المباحث)، لكن المشكلة أن الشريجي باشا بعد أن قال أن الجثة لعنايات هانم عندما رآها لأول مرة، عاد مرة أخرى وأبدى تشككه، وزعم أنها شبيهة بزوجته إلى حد كبير، لكنه غير متأكد مائة في المائة، وعـلى افتراض أنها زوجه فهو يعتقد أن الجريمة ارتكبت لأحد الاحتمالين التاليين: أولاً بسبب سياسي، ثانياً، بدافـع السرقة حيث أن الفقيـدة سحبت جزءاً كبيراً من رصيدها في البنك..

وبات واضحاً أن رجال المباحث يميلون أساساً إلى اعتبار الجثة هي لعنايات هانم، وأن الجريمة كانت بسبب السرقة،

حتى يختموا ملف القضية ويقدموها للقضاء، وينجوا بأنفسهم مما ألم بهم من حرج وقلق وأرق. . ومن السهل التفاهم مع أبو الفتوح الشرقاوي، والاتفاق معه على ما يجب أن يدلي به من اعترافات، حتى يتم المخطط المرسوم على الوجه الذي يريدونه، أما مسألة الرأس، فيمكن الحصول على رأس أية جثة حتى ولو كانت متعفنة، وبالتنسيق مع الطبيب الشرعي، حتى لا يضع العراقيل لافساد الخطة الموضوعة، وبذلك يسدل الستار على القضية.

البحث عن مخرج قانوني

قال أحد رجال المباحث المحنكين:
ـ «ماذا يكون موقفنا إذا ظهرت عنايات هانم بعد ذلك؟؟»

أجاب أحد زملائه:
ـ «احتمال ضعيف».
ـ «لكنه يظل قائماً، ويحمل تهديداً دائماً لنا».

عاد الزميل يقول في سخرية:
ـ «إذا ظهرت نقتلها».
ـ «لا تهرب من الحقيقة».
ـ «أقول نقتلها..».
ـ «لن نفعل».
ـ «ولم لا؟ أنا وبعدي الطوفان، ثم إن زوجها الشريجي باشا قد لا يسره ذلك الظهور المحتمل، لأنه يحمل في ثناياه فضيحة أكبر..».

ـ «لنكن واقعيين..».
ـ «يمكن أن نقذف بها خارج البلاد، ثم نسحب جواز سفرها.. هذا إن ظهرت».
ـ «ستكون الفضيحة أكبر..».

ولم يكن من طبيعة المباحث التوقف عن البحث والعمل في شتى الاتجاهات، ورأى البعض أن يقبض مرة أخرى على «بسيوني المغازي» متلبساً، ولم يكن من العسير أن يمسكوا به، لكنه هذه المرة كان متهماً بحيازة قطعة من الحشيش وأخرى من الأفيون ومعهما ميزان صغير، معنى ذلك أن بسيوني قد أصبح متهماً بالاتجار في المخدرات، ويبدو أنه أدرك خطورة الموقف حينما داهموه وهو يسير في أحد شوارع مدينة زفتى بعد انتهائه من حضور سوقها الاسبوعي الرائج وما أن أمسكوا به، حتى خلع جميع ملابسه، وبقي عارياً في الشارع، وأخذ يستنجد ويصيح قائلاً:

ـ «اشهدوا يا ناس.. ليس معي أي شيء.. إنهم يلفقون لي تهمة جديدة..».

لم يفلح ذلك كله، فقد ساقوه إلى التحقيق مهاناً ذليلاً متهماً بحيازة المخدرات والاتجار فيها، وأخذ يذكرهم بأنه رجل متخصص في السرقة، ولا صلة له بتجارة المخدرات وإن كان يتعاطاها شأنه في ذلك شأن الكثيرين من أهل البلاد، لكنه لاحظ أنهم لم يبدأوا معه التحقيق حول موضوع المخدرات، وبدا واضحاً أنهم يبحثون عن شهود لكي تبدو إدانة أبو الفتوح الشرقاوي مكتملة بالنسبة لقتل عنايات هانم، وأكدوا لبسيوني أنهم سوف يجعلون منه «شاهد ملك» وبذلك يحصل على البراءة.

أعيدت مناقشة أبو الفتوح بحضور بسيوني، وكان من اليسير أن يوافق أبو الفتوح على الادلاء بكل ما يريدونه منه من

اعترافات، كما أن بسيوني شهد بأنه هو الذي أعطى أبو الفتوح مائة جنيه لكي يشارك في الجريمة، وتجد أمامهم مشكلة أخرى، ومن الذي دفع مبلغ المائة جنيه لبسيوني المغازي يقوم بتوصيلها لأبو الفتوح؟؟ سؤال هام ولا بد من الاجابة عليه حتى تبدو الأمور منطقية ويمكن تصديقها.. لكن بسيوني الخبيث الذي عاش حياة السجون مراراً وتكراراً، وصاحب خلالها الكثيرين من أعلام الجريمة وخبرائها استطاع أن يجد الحل، قال:

ــ «الذي أعطاني المائة جنيه هو «ابن ظريفة» قال رجل المباحث:

ــ «ابن ظريفة؟؟».

ــ «نعم..».

ــ «من هو؟؟ وما هو عنوانه؟؟ لسوف تتسع بذلك دائرة الاتهام، ونوغل في غابة من الأشواك..».

ابتسم بسيوني وقال:

ــ «لم أكن في حينها أعرف معنى ذلك المبلغ، ولماذا كلفوني بتوصيله لأبو الفتوح الشرقاوي، والحقيقة ــ وأنا لا أكذب ــ أن أبو الفتوح هو الذي همس في أذني بتفسير ما يجري.. ربما لم أصدق ما قاله إلا بعد فوات الأوان».

ــ «حدثنا عن ابن ظريفة».

ــ «اذكروا محاسن موتاكم يا بك..».

ــ «ماذا تعني يا بسيوني».

ــ «مات ابن ظريفة منذ اسبوعين.. قيل أنه راح ضحية

الغـدر من أفراد عصـابته. . وقيـل أنها جريمـة ثأر. . وقيـل وقيل. . المهم أنه مـات، وأنه من أهـل «كفر الـطوال» وأن الحادث قيد ضد مجهول. . ».

هز الضابط رأسه باسماً وقال:

ـ «فهمت. . أنت داهية يا بسيوني».

ـ «خدامك يا بك. . ».

ـ «وبـذلك تسـد ثغرة مهمـة في القضية. . فـالوسيط أو المحرض مات. . وماتت معه أسراره. . ».

عنـدما أذيعت الأنبـاء الجـديـدة نشرت بعض صفحـات الحوادث تقارير عدة مرة أخرى عن الجريمة التي تنزف أسراراً مثيرة كل يوم، قالت صحيفة أن السفاح أبو الفتوح اعترف بأنه كان يتلذذ وهو يذبح الضحية البريئة، وعلل ذلك بقوله أنـه يكره الثريـات، ويحقد عـلى الجميلات، لأنـه ظل يحلم بهن أعواماً طويلة، ولم يظفـر بواحـدة منهن، وعلق طبيب نفسي شهير بـأن المتهم أبو الفتـوح الشرقاوي مختـل نفسياً، ويجب عرضه فوراً على أخصائي نفسي خبير، إذ من الظلم أن يحاكم رجل يحمل مثل هذه الأفكار والتصورات والأوهام الغريبـة، وتحمس لهذا الرأي عدد لا بأس به من أساتذة علم الاجتماع والكتاب والأطباء، حتى أعلن البعض أن رجلاً مثل أبو الفتوح لا يمكن اعتباره في حالة عقلية تجعله مسؤولاً عما ارتكب من جرائم. . وسعد رجال التحقيق بهذا التوجه الذي قد يغفر لهم مـا قد ينكشف للنـاس من الضغط والاكراه والتلفيق الـذي يمارسونه، كما رأوا فيه أيضاً تخفيفاً مما قد يلحق بأبو الفتوح من

عقوبات . .

اتضح أن هناك ثلاثة من منتجي السينما يتسابقون في العمل على إخراج قصة عنايات هانم في فيلم تقوم ببطولته نجمة شهيرة وعدد من الأبطال، ونشرت إحدى المجلات أنه زكي رستم ــ الممثل المعروف ــ سيقوم بدور الباشا، وفريد شوقي بدور أبو الفتوح الشرقاوي، ومحمود المليجي بدور بسيوني المغازي، واستيفان روستي بدور يونس عبده، وذلك بعد أن زار السينمائيون القرية ودرسوا عدداً من شخصياتها المؤثرة، وطبيعة المكان والزمان والتقاليد وغير ذلك من الأمور الهامة، وسرت شائعة بأن يوسف وهبي وأمينة رزق وعباس فارس وغيرهم سوف يشاركون في التمثيل . .

قال يونس عبده بعد أن خرج من عزلته:

ــ «قريتنا سوف تدخل التاريخ من أوسع أبوابه . .» .

ضحك الناس وقهقهوا . .

أما الشيخ المداح فقد استعاذ بالله، وحمل حملة شعواء على هؤلاء الذين يتاجرون بأحزان الناس، ويساهمون بفنونهم المنحرفة في صرف الخلق عن ذكر الله، وعن الانشغال بالجاد من الأمور.

وعندما قيل أن هناك ممثلاً سيؤدي دوراً شبيهاً بما عرف عن الشيخ المداح، ثار دراويشه وهددوا بحرق أية دار للسينما تتورط في عرض فيلم يقترب من هذا الموضوع .

يقول الشيخ المداح لأبنائه الدراويش:

ـ «عنـدما تغيب شمس العـدالة، يتفشى الحقـد، وتنمو الأكاذيب، ويسبح الناس في بحر الظلمات.. ومن يفقد الأمن يعش في الجحيم، ألا وإن الايمان هو جنة الله على الأرض.. وإذا شـاعت الفتنة.. فـالزم بيتـك يا مؤمن.. ولتبـك على خطيئتك.. وإذا لم تبكوا فتباكوا..».

ويكى الشيخ

ويكى الرجال..

وحدث خسوف للقمر.. وبدا القمر لأهل القرية مختنقـاً رصاصي الوجه، وتغبر ضوء الليل الفضي، وبـدا كأن الجـو أصبح أكثر حرارة من ذي قبل، وخرجت مئات الصبايا ليلاً يجبن الشوارع وهم يرددن بعض الأغاني الشعبية المعروفة في مثل هذه الظاهرة:

● يالّا يا بنات الجنه
سيبوا القمر يتهنه
● يالّا يا بنات الحور
سيبوا القمر ينور

وأخذ الطالب شعبان عبد اللطيف يشرح لأهل القرية كيف أن ظل الأرض يقع على وجه القمر فيسبب هذا الخسـوف، وكان من العسير على العامة أن يتفهموا تلك الظاهرة العلمية.

وأشارت إحدى النسوة على «قطيفة» زوجة أبو الفتوح أن تصعد إلى سطح منزلها، وتكشف عن رأسها وتدعو الله في هذه الساعة أن يفك أسر زوجها، لأنها ساعة إجابة، كما أشارت

عليها أخرى أن تقرأ «الصمدية» ألف مرة وهي على طهارة. .

* * *

حينما طفا اسم «ابن ظريفة» على سطح الأحداث، تحدثت بعض المجلات الحزبية بسخرية عن الشاهد الميت، وقالت أنه من الظلم أن نلصق بالموتى جرائم لم يرتكبوها، ألا يكفي أنهم يعانون من عذاب القبر وحساب يوم العرض، جلس الشريجي باشا وحيداً مكتئباً في عزبته، كان يفكر فيما جرى وما يجري، وقد اقترب موعد الانتخابات، كان ساخطاً على عنايات، كارهاً لها، وتمنى أن تكون قد شبعت موتاً، فقد لوثت اسمه الذي لم يستطع أعداؤه النيل منه قبل ذلك. . هذه المرأة سقته طعم الذل، ليته لم يتزوجها. . كانت نذير شؤم وخراب. . لو كان يعلم أن الأمور ستمضي بالصورة التي حدثت لدفنها حية، ولما أعيته الحيل عن التخلص منها، وهو الخبير بمثل هذه الأمور. . بالأمس كان يصنع الأحداث ويتحكم فيها، سواء وهو ضابط، أو وهو في عالم السياسة والأحزاب، لكنه اليوم ــ بسبب حماقة هذه الزوجة المقيتة ــ أصبح ينتظر كالبائس ما سوف تأتي به الأيام، إن الانقباض يجثم على صدره، تعرى من القوة، وخضع للضعف والعجز، ما زال يفتل شاربه، ويبتسم، ويرفع هامته عالية، ويمشي بخطوات عسكرية، ويضخم نبرات صوته، وينثر آراءه كالأوامر، ويتحدث حديث الحكيم الواثق من نفسه. . وذلك لأن الأقنعة ضرورة سياسية واجتماعية خاصة في هذا الزمن، ولا بأس أن يكون الخارج نقيض الداخل، إنه واقف على المسرح، ولا بد أن يقوم بدوره في

اتقان وإلا قذفه الجمهور بالبذيء من التعليقات، أو الطماطم الفاسدة، والبيض المشش.

فكر الشريجي باشا أن يكثف عمليات البحث عن زوجه عنايات هانم لعلها تكون حية، وكان يقصد من وراء هذا التكثيف الوصول إلى الحقيقة، فإذا كانت هي القتيلة فسوف يحمد الله، ويغلق الملف إلى الأبد، وأذا كانت حية فهو إما أن يخطفها ويعيدها إلى القصر سرّاً ويفكر، أو يجعل رجاله يتخلصون منها بأسلوب دقيق مبتكر لا يترك وراءه أثراً، ودون أن يعلم أحد بذلك، وهكذا تدفن ويدفن معها سرها.. ذلك السر الذي لا يمكن إلا أن يكون مهيناً حقيراً مقززاً..

لا بد من معرفة الحقيقة المقنعة بعيداً عن الحكومة وعن الرسميات، وذلك هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يرد إليه سعادته المفقودة، وأمنه الضائع، وشرفه المستباح، ثم أنه بذلك يبدأ في صنع الأحداث كسابق عهده، ولا يجلس بائساً ينتظر ما تأتي به الأيام..

* * *

وانقلب أمن القرية هي الأخرى، ففي أيام قلائل داهمت الشرطة البيوت، وقبضت على الكثيرين ممن يحوزون السلاح بدون ترخيص، كما تم الامساك ببعض تجار المخدرات متلبسين، وسيق عدد من أصحاب البقالات، وتجار الحبوب والأقمشة والأغذية بتهمة عدم مراعاة قانون التسعيرة الجبرية.. حتى الجزارون جروهم من سوق القرية.. وتساءل

الناس لماذا يحدث ذلك، وفي هذا الوقت بالذات، فتهـريب السلاح من المعسكرات البريطانية يقوم به بعض الرسميين، والسوق السوداء تخضع لسيطرتهم، والحشيش مثلما يقال على قفا من يشيل، بل ظهرت مخدرات ومنشطات جديدة أشهرها «البانجو» والقطعة منه تباع بقرشين، والناس كانوا يبيعونه في الشوارع والحارات دون حرج، والانجليز هم الذين أتوا به، والسـوق السوداء ضرورة معيشيـة لأن التموين الـرسمي لا يكفي، ولا بد أن يبحث الناس عن احتياجاتهم بأي ثمن. .

قال الحاج يونس عبده:

ـ «قريتنا هي القرية الظالم أهلها. . ومـا ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. . ».

وترددت شائعات بأن يونس عبده يشتغل كمرشد أو مخبر للمباحث، ويتقاضى على ذلك أجراً إضافياً، وهو على استعداد لأن يشي بأي إنسان حتى ولو كان من أعز أصدقائه، ويعزى إلى يـونس تلك الهجمات البـوليسية عـلى أوكار تجار السوق السوداء والحشاشين وحائزي السلاح، بل قيل أيضاً أنه أرسل شكوى من مجهول يدعى فيها أن العمدة له حصة من التموين يأخذها ظلماً وعدواناً من أقوات المساكين. . مع أن العمدة من أبناء عمومته. .

الأمر الذي شد الانتباه، وأثار موجـة عارمـة من السخط والغضب والدهشة هو سرقة جاموسة الشيخ المداح نفسه. . يا للكارثة!! جاموسة الشيخ؟ هذا لا يحدث إلا في بلد جاحدة كافرة. . إنها الخطيئة الكبرى. . شـاع الخبر، لم يصدق الناس

في البداية.. لم يغضب الشيخ أو يخرج عن طوره كان هادئاً باسماً راضياً بقضاء الله وقدره.. وأعلن أن الشيخ سوف يتوكل على الله ويسافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج..

سرقة جاموسة الشيخ المداح حادث لا شبيه له في تاريخ القرية الطويل، فالناس تقدم له المنح والعطايا، وهو يفرق على الفقراء والمساكين، ويطعم الجائعين، ويهدي الضالين، ويصلح بين المتخاصمين، ويعيد المطلقات إلى أزواجهن، ولم يشترك في صراع أسري أو طبقي.. إنه رجل الله كما يقولون، إذا قامت فتنة ساهم في إخمادها، وإذا توترت النفوس رطب القلوب بالحب والحنان، ومهما بلغ الانحراف بالناس فلا يجوز أو يتصور أن يمسه أحد بأذى..

قال الشيخ المداح في هدوء يحسد عليه:

ـ «لعل من سرقوها في حاجة شديدة إليها، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أوقف حد السرقة في عام المجاعة أو الرفادة كما تعلمون من قبل، ومن يدري؟ إن الحقيقة لا يعلمها إلا الله وحده.. لعلها لم تكن من نصيبي منذ البداية..

انظر إلى العالم يذبح بعضه بعضاً في حرب لا يعلم أحد متى تنتهي.. الدماء التي تسيل في العالم من أجل المغانم والأسلاب، وليست جهاداً في سبيل الله.. الشيطان أصبح يحكم نفوس الفرنجة وغير الفرنجة والعياذ بالله.. وماذا تنتظرون بعد الحرب والدمار والجوع أيها الناس؟؟ لسوف يأكل الناس لحوم البشر، والحمد لله أن الأمر توقف عند أكل لحوم

البهائم وحراماً . . ».

وقدمت إلى الشيخ أفواج من القرى المجاورة عرفوا بسرقة المواشي والزروع، واعترفوا بأنهم لصوص، لكنهم أكدوا له أن أيديهم بريئة من هذا الاثم الذي لا يغتفر، لأن سرقة جاموسة الشيخ أو أي شيء يخصه تعتبر جريمة من الكبائر التي لا غفران لها في اعتقادهم، وأقسموا أن يبحثوا عن الجاموسة المفقودة، مهما كلفهم ذلك من ثمن، وأنهم سوف يعاقبون الجناة على فعلتهم الشنعاء . .

وعندما طلب العمدة من الشيخ أن يتقدم ببلاغ رسمي عن حادث السرقة، أبى الشيخ إباءاً حاسماً، وأفهم العمدة أن ذلك أمر يخصه وحده، ولا دخل للجهات الرسمية فيه، وأنه لن يلجأ إلى الشرطة، بل سيتوجه بالدعاء إلى الله كي يرد عليه ضالته . .

والواقع أن الجريمة تركت في نفوس الفلاحين شعوراً بالاشمئزاز والقرف، واعتبر كل فرد نفسه مسؤولاً عن ضياع جاموسة الشيخ . . وأقيمت الاحتفالات المتنوعة بمناسبة اقتراب سفر الشيخ المداح إلى الأراضي المقدسة للحج . .

لقد كان بالقرية حجاج آخرون غير الشيخ، لكن البيوت كلها ـ حتى تلك التي ليس بها حجاج ـ تسابقوا في الاحتفاء بالشيخ، جميع النسوة يغنين للرجل الطيب الطاهر العفيف الحسيب النسيب، الذي يقال أنه من سلالة البيت الشريف، وكان في الأغاني الشعبية التي تتردد معاني رائعة جميلة، ففي

أحداها نسمع كيف أن غرفة الاستقبال (المنـدرة) تطلب أن تكون مع الحجاج شوقاً لرسول الله.

«المندرة بتقول:
خدوني خدوني»

وأغنيـة أخرى تنـاجي القمر أن ينـير لهم طريق «الـدرب الطويل» أثناء الليل، وتناجي الشجر أن يبسط عليهم ظله في أوقات الهجير.

يـا قمـر يـا قمـر	أوصيـك عـليـهـم
وفي الـدرب الطويـل	تـنـوّر عـليـهـم
يـا شجـر يـا شجـر	أوصيـك عـليـهم
وفي الدرب الطويـل	تـظـلل عـليـهم

وعلى الرغم من أن الطريق إلى الرسول بين مكة والمدينة يشق الصحراء، إلا أن المغنيات الشعبيات يصورنه على أنـه مليء بالزروع الخضراء والزهور والرياحين، إن هناك عالماً آخر يرسمه خيال المؤمنين، فيأتي صدى لما في أرواحهم من أشواق وعشق لصاحب الرسالة الخالدة، ذلـك الحب المكين الـذي يحيي في رحـابه الحجـاج وغير الحجـاج، الفقراء والأغنيـاء، والمتعلمون والجهلاء حتى لصوص القرية كانت تندى عيونهم بالدموع وهم يستمعون لهذه الأغاني الجميلة..

انتهز يونس عبده هذه الحادثة الغـريبة، وخـرج من وكره وأعلن على الملأ أنه سيقوم بنفسه متطوعاً لجمع التحريات عن الجاموسة، وأنه لن يهدأ له بال حتى تعود، لأن ما جرى يعتبر

طعنة موجهة إلى كرامـة الأولياء، وإلى حمـاة الدين، وشرف القرية كلها. .

لكن قطيفة زوجة أبو الفتوح أقدمت في ثورة عارمة، ثم أمسكت بخناق يونس عبده وقالت:

ـ «أين زوجي يا كذاب؟؟».

صفعها على وجهها في حدة وهو يقول:

ـ «أوصلت بك الصفاقة لهذا الحد. . يميناً بـالله لأوصله لحبل المشنقة. . ».

صاحت بأعلى صوتها، ثم أخذت تمرغ وجهها في التراب وهي تقول:

ـ «وأرضي التي استوليت عليها يا إبليس؟».

ـ «بيع وشراء. . بالقانون. . واضربي رأسك ورأس أهلك في الحائط. . ».

صرخت مرة أخرى:

ـ «يا نصاب. . يا ناقص. . ».

التفت إلى الناس الذين تجمعوا وقال:

ـ «زوّجها وضمن بختها؟؟ علينا أن نسعى والنتيجة على الله. . ثم ماذا أقول لكم.

هناك أسرار لا يمكن أن تعلن على الملأ. . ».

قال شعبان عبد اللطيف طالب العلم الأزهري:

ـ «تكلم والسر في بير. ليس بيننا غريب، ثم هل بقيت

أسرار؟؟».

تلفت يونس حوله، وقال بصوت خفيض حتى يفلت من قبضة قطيفة، وينجو من المأزق الحرج الذي وجد نفسه مقيداً فيه:

ـ «يا ناس.. عنايات هانم لم تمت.. عنايات هانم في السرايا الملكية.. لقد أصبحت من وصيفات الملوك. هذه مراسيم ملكية.. ولهذا فإن ملف القضية سيغلق، وسيعود أبو الفتوح الشرقاوي إلى داره.. إن المحامي الذي وكلته في القاهرة يعرف الكثير الذي لا يمكن أن أبوح به..».

تداول الناس كلمات «يونس عبده»، وشاعت في القرية بل وفي القرى المجاورة، ويبدو أن الأمر قد بلغ مسامع المباحث.

وبعد أن أعلنت القضية بعد التكييف القانوني لها، واعتراف أبو الفتوح، وشهادة الشهود أصبحت جاهزة للعرض على المحكمة.. لكن حدث بعد يومين أن المباحث جاءت ليلاً، واعتقلت يونس عبده، واتضح للناس فيما بعد أنه سوف يحاكم بتهمة العيب في الذات الملكية طبقاً لنصوص القانون، حيث تقول بعض الأقاويل على الملك والسراي دون بينه أو دليل، في وقت كانت الأحكام العرفية فيه معلنة، كما تم استدعاء بعض أهل القرية للشهادة ومنهم قطيفة زوجة أبو الفتوح وطالب العلم شعبان عبد اللطيف، وغيرهما..

وقع العمدة في حرج بالغ، لأن يونس عبده موظف حكومي، ثم إنه قريبه، بالاضافة إلى كونه مرشداً للمباحث

والعمدة يعلم ذلك. . ثم إن جاموسة الشيخ التي سرقت، وبعض الحرائق التي أشعلت من مجهولين في البلد، وقضايا التسعيرة والمخدرات، وقضية أبو الفتوح الشرقاوي، كل هذه الأحداث عجلت بإصدار قرار فوري بوقف العمدة عن العمل، وتكليف نائبه بأن يقوم بعمله، وكان وقف العمدة كارثة من نوع آخر، فالموت ولا هذا، لأن نائبه من أسرة معادية لأسرته، والمسألة مسألة كرامة وشرف. .

وتصادف في هذا الوقت أن حاصرت القوات البريطانية قصر الملك فاروق الأول ووجهت إليه انذاراً حاسماً، بضرورة تكليف النحاس باشا زعيم الأغلبية المطلقة في الانتخابات الحرة التي جرت بتأليف الوزارة، وعلى الرغم من أن أحزاب الأقلية التي كانت قد فشلت في الانتخابات قد رفضت الانذار البريطاني، ودعت الجميع إلى رفضه، إلا أن الملك لم يجد مناصاً من الاقرار بالأمر الواقع، وتكليف النحاس بتشكيل حكومة وفدية، يمكنها السيطرة على الأمور في مصر، في أثناء هذه الحرب الضارية على مستوى العالم، والتي لا يعرف أحد لها نهاية. .

لم تهتم القرية بما جرى في القاهرة، كان اهتمام أهلها منصباً على جاموسة الشيخ المسروقة، وعلى قضية أبو الفتوح المعقدة، وأخيراً على قضية يونس عبده المتهم بالسب في الذات الملكية وهذه أول قضية من نوعها في البلد. .

وقبل أن يسافر الشيخ المداح إلى الحج بيومين اثنين شاهد

الفلاحون في الصباح الباكر لدى عودتهم من صلاة الفجر مشهداً من المشاهد المذهلة!!

كانت جاموسة الشيخ تتبختر وحدها في شارع القرية الرئيسي دون أن يقودها أحد، كانت تسير في هدوء غريب غير عابئة بما حولها، متوجهة إلى بيت الشيخ دون دليل، وهلل الحاضرون وكبروا.. وخرج النسوة والأطفال والنوم يداعب الجفون، وصحت القرية عن بكرة أبيها لتشاهد ما اعتبروه في عداد الكرامات..

وانطلقت الزغاريد من كل مكان.. في الشارع.. وعلى الأسطح.. واختلطت زغاريد النساء بتكبيرات الرجال، وفرحة الأطفال، وشقشقة العصافير.. وسارت الجاموسة في موكب رائع وقد تكدس حولها مئات البشر.. كانت الجاموسة تمشي كملكة متوجة، والناس يفسحون لها الطريق، ويقدمون لها الطعام وهي لا تكترث، وترفض أن تتعاطى شيئاً.. بل أخذ البعض يشق الكتل المتراصة لينعم بلمس الجاموسة، وكأنها أصبحت مصدراً للبركات..

عندما علم الشيخ بالنبأ وهو جالس يتلو أوراده في المسجد، تمتم بكلمات قليلة والرضى يكسو وجهه:

ـ «المال الحلال لا يضيع.. اتركوها فإنها مأمورة..»

وتناقلت الأفواه حكمة الشيخ، وانطلقت الروايات العديدة هنا وهناك، فمن قائل أن سارق الجاموسة قد أصيب بالعمى، مع أن أحداً لا يعرفه حتى الآن، ورفيقه الثاني قد فقد النطق

وأصيب بالشلل، أما الثالث فقد فقد عقله، وأصبح يسير في الطرقات ضحية الهلوسات. .

ولم يكلف أحد نفسه أن يتحرى الأخبار، أو يسأل عن الأشخاص الذين ارتكبوا الجريمة، فكل شيء لا بد أن يتضح، وجاموسة الشيخ ليست كبقية الجاموس في القرية. . والسبب بسيط ويتركز في السؤال الذي يفرض نفسه: «لماذا عادت بالذات جاموسة الشيخ وحدها، ولم يعد غيرها من البهائم التي سرقت من قبل؟؟».

المفاجـــأة

انتفض «الشريجي باشا» واقفاً حينما تناهى إلى سمعه كلمات على الطرف الآخر من الهاتف، قال الصوت:

ـ «عنايات هانم هنا».

شحب وجهـه، ودق قلبه العجـوز حتى كـاد يسقط عـلى الأرض إعياءً، إنّه مريض بقصور في الدورة التاجية للقلب، والانفعال قد يؤدي إلى إصابته بنوبة قاتلة إثر انسداد في هذه الشرايين، تحسس جيبه بسرعة وأخرج قرصاً من الدواء وضعه تحت لسانه، وأخذ يمصه وقال بصوت مضطرب:

ـ «أين هي الآن؟».
ـ «في مكتب مدير البنك».

صدق ما توقعه الشريجي باشا، لقد قال في نفسه أن عنايات إذا كانت حية فسوف ينفذ ما سحبته من النقـود، وتعود إلى البنك مرة أخرى، كان الاحتمال ضعيفاً لأنها في المرة الأخيرة كانت قد سحبت مبلغاً كبيراً، فضلاً عن أن نشر اختفائها في الصحف سيجعلها أكثر حذراً إذا كانت حية، لكن يبدو أنها اعتمدت على ثقتها بمدير البنك، ولأنها لم تكن تتوقع أن زوجها سوف يرصد العيون حـول مظان تـرددها خـاصة في النـادي

والبنك ومحل حياكة الملابس والكوافير وغيره من الأماكن الأخرى.

قال الشريجي باشا للموظف المكلف بالمراقبة في البنك.
ـ «إذن تباطأوا قليلاً في صرف المبلغ لها حتى أدبر أموري.. لا تجعلها تفلت.. مفهوم».

فكر الشريجي باشا ماذا يفعل؟؟ إنه لو داهمها أمام أعين الناس وبصرهم، فستكون كارثة وخاصة إذا قاومت وصاحت، ولهذا بيت في نفسه أمراً.. لسوف يتابعها هو ورجاله حتى تصل إلى المخبأ الذي تأوى إليه، ثم يحاصر المخبأ، وبعدها يتصرف كما يحلو له، ستكون هي وعشيقها صيداً ثميناً وقع في شباكه، وله الخيار بعد ذلك أن يفعل ما يشاء.. وقاد الشريجي باشا بنفسه حملة المداهمة أو المراقبة، وكأنه يقوم بعملية أمنية دقيقة مرسومة بعناية.

وابتلع قرصاً آخر مهدئاً للأعصاب هذه المرة، وأخذ يرقبها داخل سيارته من بعيد وهي تخرج من البنك وحقيبتها في يدها، ونظارتها السوداء على عينيها، وأغلب أجزاء وجهها ملفعة بشال أسود بحيث لا يستطيع أحد التعرف عليها ممن رأوها من قبل، لكن الشريجي يستطيع بخبرته وحسه أن يتعرف عليها في قلب العتمة..

ركبت السيارة وإلى جوارها عشيقها، حاول أن يتذكر من هو، وهل رآه من قبل أم لا؟؟ الملعونة لا تكتفي بواحد، موزعة القلب، متعددة الولاءات، نجسة الطباع، عندما

يقبض عليها وعليه، فسوف يسفك دمها وسيقطع رقبته، ولسوف يدفنها في مكان لا يعرفه حتى الذباب الأزرق. . هذا هو الحل، لا يستطيع القبول ببقاء عنايات حية على وجه الأرض بعد العار الصاخب الذي أغرقته في لجته. . وهذا أقل عقاب ممكن، ولتبحث عنها الشرطة ما شاء لها البحث، ولتكتب الصحف والمجلات تفاصيل الأساطير التي تحلو لها، إنه يريد أن ينتهي من هذه المأساة، يريد أن يستريح، ولا حل سوى الموت. . نعم الموت هو الحل الحاسم لهذه الفضيحة النكراء التي لوثت شرفه وسمعته، وهددت مستقبله السياسي. . كانت بالنسبة له مجرد «ديكور»، ومن السهل تغيير «الديكور» مع تغير الأذواق والزمن والظروف. . في ميدان «باب الحديد» بالقاهرة تزاحمت السيارات الصغيرة والحافلات الكبيرة، وعربات «الكارو»، وارتبك المرور ووقعت حوادث، واختلط الحابل بالنابل، وفرت سيارة «عنايات هانم» كيف حدث ذلك؟؟ لكن لماذا التساؤلات التي لا جدوى منها؟ نزل الشريجي باشا من سيارته، وأصدر تعليماته لرجال قافلته المكلفة بالعملية، وأشار إلى أن سيارة رقم واحد يجب أن تذهب إلى مخرج القاهرة إلى طريق الاسكندرية، والثانية إلى مخرج القاهرة طريق الإسماعيلية، والثالثة إلى. . وهكذا حتى يمكن محاصرة كل المخارج. .

وأسفرت الجهود المبعثرة ذات الطابع العصبي المتوتر عن فشل ذريع، وفرت عنايات وعشيقها، فارتمى الشريجي على مقعد سيارته الأنيقة يتفصد جبينه عرقاً. هذا الفشل يكاد

يقتله.. فكر أن يخرج مدفعه الرشاش ويحصد كل من يجده أمامه إنه لا يستطيع الصبر، لكن ما قيمة ذلك العمل الطائش، وبينما هو مشتغل بأحزانه وانفعالاته الهادرة، ألقى أحدهم بورقة في سيارته.. نظر فوجد دراجة نارية تنطلق كالسهم، ما صلة راكب هذه الدراجة به حتى يقذف له بهذه الورقة؟؟ أمسك بالورقة بيده المرتجفة وأخذ يقرأ «لا تقلق... إن رجالنا وراءها، وسوف نأتي بها، فعد إلى قصرك».

دارت رأسه، هل هناك من يراقبها ويراقبه؟؟ومن يكون؟ إن الشرطة عادة لا تبذل مثل هذه الجهود الدقيقة، ولا تشغل نفسها بهذه الأمور إلى تلك الدرجة، احتمال أن يكون بعض أعدائه.. أو ربما بعض رجالات حزبه يحاولون فك طلسم اختفاء عنايات، ولهذا وذاك هدفه الخاص به، وهذا أمر يزيد من انزعاج الشريجي باشا وقلبه، كان يريد أن يكون هو وحده المسؤول عن الامساك بها، كما يتمنى أن يرتب الأمور بالطريقة التي رسمها وخطط لها، أما تدخل الآخرين من جانب الأصدقاء أو الأعداء أو الشرطة فسوف يورث خطته الفشل. لقد ربا غمه، وطغى ضيقه، وآلام صدره تعاوده، قطرات من العرق البارد، تندى جبينه الشاحب.. أخذ يلهث بصورة تدعو إلى القلق، قال لسائقه:

ـ «خذني إلى المستشفى».

لم يستطع الشريجي باشا أن يبعد شبح عنايات عن ذهنه وهو راقد تحت خيمة الاكسوجين في غرفة الانعاش بالمستشفى،

والذي كان سراً بالأمس تناولته الصحف اليوم، وأجرى تحقيق شامل عاجل في مقر البنك الرئيسي بالقاهرة، وثبت يقيناً أن عنايات قد أتت وسحبت جزءاً من رصيدها هناك، وكان التوقيع توقيعها، فضلاً عن أنها شخصية معروفة لدى مدير البنك، ولها حسابات جارية في طنطا والقاهرة والاسكندرية وكتبت إحدى الصحف تقول:

«أفرجوا عن البريء أبو الفتوح الشرقاوي».

وتعرضت الداخلية لنقد لاذع في أكثر من جريدة ومجلة، وكذلك النيابة، مما حدا بأحد الرسميين أن يصرح قائلاً: «إن القضية معقدة، وهناك جرائم قتل ارتكبت لم تتضح حقيقتها بعد، والغموض يلف الموقف كله، والمتهم أبو الفتوح الشرقاوي اعترف بواقعة القتل، لكنه لا يعرف حقيقة أو هوية الضحية، لذا فإن ظهور عنايات هانم إن ثبت، فلن يغير من الواقع وهو أن يدي أبو الفتوح الشرقاوي ملوثة بدماء بريئة... والنيابة تؤكد في كل مرة أنها تتحرى الصدق والعدالة، وأن موقف المتهم سوف يحدد في أقرب فرصة ممكنة» كما صرح أحد رجال الشرطة المرموقين «إن رجالنا بصدد الامساك بطرف هام من أطراف القضية الشائكة، ونحن نحتفظ بسرية التحقيق وعدم النشر حتى نستطيع الوصول إلى الحقيقة بأيسر وأسرع السبل».

أما الأستاذ «حسن سليم» ــ وهو محام شهير منتسب لجماعة الاخوان المسلمين ــ فقد قدم مذكرة للنائب العام يطالب فيها

بالافراج عن أبو الفتوح الشرقاوي، وجاء في هذه المذكرة:

ـ «.. إن القضية لم تعد قضية فرد.. إنها تشكل امتحاناً للدستور والقوانين، ولجوهر العدالة.. والاعترافات التي سيقت على لسان أبو الفتوح الشرقاوي جاءت نتيجة الاكراه البدني والنفسي، إنني أشك بقوة في تأثير العنف والضغوط على المتهم، ما أسفر عن اضطراب في قواه العقلية.. إن الاصرار على عدم الافراج عن المتهم المسكين يشكل جريمة في حد ذاته، وهو أمر يتنافى مع العدالة.. إنني أطالب بتطبيق نص القانون في مواده المعروفة.. وما قيل عن وجود ضحايا آخرين لا يكفي كمبرر لبقاء المتهم أبو الفتوح الشرقاوي خلف الأسوار.. إن ابقاء المسكين في سجنه إنما هو وسيلة خبيثة لتغطية فشل الأجهزة الأمنية والقضائية في الوصول إلى الحقيقة..

هذا وهناك مفاجآت تتعلق بالقضية لا أجدني في حل عن الافصاح عنها الآن للمصلحة العامة، وستعلن في حينها، ولكن أؤكد أنها لصالح القضية ولصالح المتهم، وسوف تسلم إلى سعادة النائب العام في الوقت المناسب..».

وبدا واضحاً أن أبو الفتوح الشرقاوي أصبح يلقى تعاطفاً صريحاً من جانب الصحافة ورجال القانون، وأصبحت صورته أمام الجميع صورة الانسان البريء الساذج الذي أصبح كبش فداء في أمور عائلية عاطفية وسياسية وحزبية وأمنية، ولا شك أن بقاء الموقف متجمداً على هذا النحو يسيء إلى سمعة الشرطة والقانون، ولهذا بادر النائب العام بعقد عدد من الاجتماعات،

وأخيراً أصدر أمره بالافراج عن أبو الفتوح الشرقاوي بالضمان الشخصي . .

وغطت أخبار الإفراج على أخبار الحرب وهتلر والضائقة الاقتصادية والاجتماعية التي تعاني منها مصر، وحاول بعض الكتاب الحزبيين أن يتناول قضية أبو الفتوح الشرقاوي من منظور عام، مؤكداً أنها صورة تعسة للوضع المتردي الذي آلت إليه مصر في هذه الحقبة التاريخية السوداء، وأنها تجسيد لضياع هيبة القانون والحريات العامة، كما أنها كشفت المستور عن الأوضاع المهترئة للطبقات التي تزعم أنها راقية ومتحضرة وشريفة . .

وانهالت التبرعات على أبو الفتوح، وامتلأت يده بالمال، وبيته بالخيرات، وأوفد رؤساء الأحزاب مندوبين عنهم لمساعدته ومساندته بشتى الأساليب، وأصبح المترافعين عنه في القضية ثلاثة محامين، على رأسهم الأستاذ حسن سليم الذي قدم العريضة الشهيرة للنائب العام .

* * *

فرحت القرية أيما فرح بالافراج عن أبو الفتوح، وخرجوا بصورة شبه إجماعية يستقبلون الرجل الفقير الأمي الذي صنعت منه الأقدار بطلاً دون رغبة أو إرادة، وانهمرت مئات القبلات على وجهه وجبينه، وهو شارد ذاهل حائر النظرات، لا يدري أهو في حلم أم حقيقة، وكم كانت دهشة الجميع الكبيرة حينما رأوا الشيخ المداح يقدم لتهنئته، هنا أفاق أبو الفتوح من

شروده، وانكب يقبل يدي الشيخ ويمطرهما بالدموع، ويقول بصوت جريح:

ـ «أنا مظلوم.. والله العظيم مظلوم يا مولانا.. لم أقتل أحداً.. لو كذبت على الناس جميعاً فلن أكذب عليك..».

هز الشيخ رأسه في أسى وهو يسحب يده من بين يدي أبو الفتوح وقال:

ـ «أعرف أنك بريء».

ـ «ضربوني يا مولاي».

ـ «منهم لله يا ولدي..».

ـ «كنت في دوامة.. لا أعرف لي رأساً من رجلين..».

ـ «لن يضيعك الله..».

ـ «كنت أقول كلاماً يخرج مني دون وعي..».

ـ «لا يصح إلا الصحيح يا أبو الفتوح..».

ـ «في البداية كان مزاحاً وتسلية..»

ـ «هذا هو خطؤك..».

ـ «لم أكن أعلم أنه سيلف حبل المشنقة على رقبتي..».

ـ «لعلك تعلمت الدرس..».

ـ «هذه الدنيا كل مجرم يريد أن يلقي بجريمته على بريء..».

ـ «عم الفساد.. حكم الأبالسة..».

استطاعت زوجه قطيفة أن تشق الزحام، وتصل إليه بصعوبة، تشبثت بثيابه، أخذته جراً إلى بيتها الواطىء

الأكلح، جرت.. جرى معها.. دخل الدار.. قاسها بنظراته..

ـ «اغلقي الباب يا قطيفة.. أريد أن أستريح.. أريد أن أنام.. لم أنعم بالنوم منذ ليال طوال..».

احتضنته، وأجهشت بالبكاء، وبكى الطفلان.. وبكى أبو الفتوح، وتمتمت قطيفة بصوت حزين وهي ترفع عينيها إلى السماء:

ـ «منهم لله..»

لغـز جديـد

نشرت جريدة «الليـالي الغراء» خبـراً مفاده أن الصحفي الكبير والناقد الفني المشهور «الزير أبو ليلة» سوف يكتب تباعاً مذكرات أبو الفتوح الشرقاوي كما وردت على لسانه تقريباً، فأثار هذا الخبر موجة من الاعتراض عند البعض، ولقي قبولاً شديداً عند البعض الآخر، فمن قائل أن الأستاذ «الزير أبو ليلة» ــ بـرغم أنه يختفي وراء ستـار الفن والحيـاد ــ سـوف يستغـل الموضـوع استغلالاً سيـاسياً لصـالح فئـات حـزبيـة وسلطوية معينة، ورأى آخرون أن السيد الزير لا يهمه سوى الفضائح والاثارة، فالقضية لديه امرأة لها نزواتها وعشاقها ولا شيء غير ذلك، لكن الجهات الأمنية والقضية كان رأيهـا أن الموضوع سـابق لأوانه، وأنـه قد يضر بـالتحقيق، أما رئيس التحرير فلم يكن يهمه إلا رواج صحيفته، ونظراً لأن الموضوع شائك، والرقابة سوف تؤدي دورها، فقد أجرى اتصالات على مستوى عالٍ كي يضمنـوا له عـدم مصادرة الجـريدة، لكن محامي الشريجي باشا بادر برفع قضية مستعجلة أشار فيها إلى خطورة نشر مثل هذه المذكرات، التي قد يكون بها مسـاس بشخصيات ذات حيثيات كبيرة. .

وجرى جدل وصراع شديدين حول هذه المذكرات، وفي

هذه الأثناء لم تكف جريدة «الليالي الغراء» عن نشر الاعلانات عن المذكرات، وبعض المقتطفات القصيرة المليئة بعلامات الاستفهام والتعجب، مع صور من زوايا مختلفة لأبو الفتوح الشرقاوي.

لم يكن موضوع نشر هذه المذكرات بالأمر السهل، وكان واضحاً أن التنفيذ صعب، وفي فجر إحدى الليالي دق باب أبو الفتوح الشرقاوي، هب أبو الفتوح واقفاً، لقد أصبح نومه خفيفاً بعد التجربة المرة.. ذهبت الأيام الجميلة التي كان يستغرق في النوم بمجرد أن يلقى بجسده على المصطبة أو الفرن فوق حصيره القديم، كان النوم والشهية المفتوحة وقطيفة هي الملذات الحلال التي ينعم بها في حياته.. أيام الرعب التي عاشها خلف القضبان، وفي عنف الاستجوابات والتحقيقات والتعذيب قد نقلته من دنيا إلى دنيا جديدة، ومن عصر إلى عصر، ومن حال إلى حال.. قال له الشيخ المداح:

ــ «هذا عصر الضلال.. وبنوه ضالون ومضلون.. لم يعد أحد يعرف الصدق من الكذب.. ولا الوهم من الحقيقة.. إنهم يصنعون المواقف.. وكل شيء على هواهم.. والناس ضائعون..».

صرخ أبو الفتوح في رعب وهو يتصنع الشجاعة مثل شرطي الدرك:

ــ «من هناك؟؟».

جاءه صوت من الخارج:

ـ «أصدقاء. .».
الصوت غريب على أذنه، وكذلك الكلمة. .
ـ «افتح يا أبو الفتوح. .»
ـ «لن أخرج».
ـ «لا تخف. . جئنا لمصلحتك» دق قلبه. . لطالما دق ودق. . حتى كاد يسقط اعياءً.
ـ «اتركوني في حالي يا ناس».
ـ «افتح يا مغفل. . قلنا جئنا لمصلحتك»

هذا بداية التهديد والعنف، ولا مفر من أن يفتح الباب، كانت قطيفة والطفلان يغطون في نومهم العذري الذي لم يخالطه الرعب. . اجتاحته موجة من عدم الاكتراث، قال في نفسه: هل سيحدث أكثر مما حدث. . ليكن ما يكون. . هي موتة أو موتتان؟

عندما فتح الباب رأى في العتمة وجوها لرجال ثلاثة من ذوي الشأن على ما يبدو، عرف ذلك من ملابسهم والجدية المرتسمة على وجوههم، إنهم أشبه برجال التحقيق:

ـ «البيت ليس قد المقام. .»
قال رجل رشيق ذو صحة جيدة:
ـ «سنذهب إلى دوار العمدة».
ارتجف أبو الفتوح وقال:
ـ «ولماذا دوار العمدة؟؟ أهو تحقيق جديد إذن؟؟ لم أعد أحتمل. .».

ـ «لا . . لا . . قلنا جئنا لمصلحتك . . وأنت بريء».

بات واضحاً أن العمدة على علم تام بما يجري، وأنه قد وفر كل الامكانات لخدمة القادمين المجهولين . .

تكلم رجل من القادمين وقال:

ـ «إن نشر مذكراتك قد يجر عليك الوبال . . ويفتح باب التحقيق من جديد . . وسترفع ضدك العديد من القضايا الخاصة بالتعويض ورد الشرف، والنهاية الحبس والغرامات . . »

قال أبو الفتوح وقد فغر فاه:

ـ «لم أفهم ذلك».

ـ «لأن الذين يريدون الايقاع بك أبالسة . . ».

وأقنعوه أن من صالحه ألا ينشر شيئاً على لسانه مهما كان الاغراء، فرجال الأمن قادرون على أخذه مرة أخرى إلى الحبس، بل ويمكنهم أن يلفقوا له عشرات التهم بدقة لا نظير لها، فهم الغالبون دائماً، ولن ينكسروا أمام أية قوة في البلد، والمذكرات سوف يستغلها البعض استغلال قبيحاً «وأنت يا أبو الفتوح الضحية . . المسكين . . وإذا كانوا سيعطونك مائة ثمناً للمذكرات، فسوف نعطيك ألفاً . . وأنت الرابح . . الصمت أغلى من المذكرات ونحن ندفع الثمن عطفاً عليك . . لست في حاجة إلى المزيد من المتاعب . . هل فهمت؟؟».

تلفت أبو الفتوح حواليه وقال:

ـ «من أنتم؟».

ـ «أهل خير».

ـ «في هذا الزمان؟؟».

ـ «نعم..».

ـ «وما معنى المذكرات؟».

ـ «قصة حياتك التي تريد جريدة «الليالي الغراء» نشرها على حلقات..».

علق في دهشة:

ـ «حياتي؟؟ ماذا في حياتي غير الفقر والهوان والذل».

ـ «القضية يا أبو الفتوح..».

ـ «أية قضية.. تخريف في خريف.. فالناس في بلدنا يستمتعون بالكذب، ويرفهون عن أنفسهم.. والحكومة تريد الكذب حسب مصلحتها.. وأنا طول عمري ثرثار.. أعني كذاب.. وقد أخذت جزائي.. ليس في حياتي قصة لها قيمة.. لم أكن قاتلاً مأجوراً.. ولا عمدة.. ولا شيخ خفر.. ولا..».

قاطعه أحد السادة قائلاً:

ـ «ابصم على هذه الورقة».

ثم وضع يده في جيبه، وأخرج رزمة من الأوراق المالية، وأضاف:

ـ «وخذ هذا المبلغ هدية».

ـ «على أي شيء أبصم؟؟».

ـ «تعهد بألا تنشر مذكراتك..».

ـ «أخاف أن أبصم على اعترافات ملفقة..».

ـ «لسنا من هؤلاء يا أبو الفتوح. . معنا هنا مندوب من الشرطة وحضرة العمدة. . ».

ـ «وهذا يزيد من خوفي. . ».

ـ «لو كنا ننوي بك شراً لانتزعناك انتزاعاً، وأخذناك جرّاً إلى الحبس. . ».

ثم صاح الرجل الغريب:

ـ «ابصم يا حمار».

قال أبو الفتوح في اضطراب:

ـ «حاضر يا بك. . ».

ـ «خذ الفلوس. . ».

ـ «لا أريد. . ».

ـ «لا تكن غبياً. . ».

ورأى أبو الفتوح حضرة العمدة عن بعد يتسلم خفية مبلغاً من المال، كما رأى عسكري الحراسة هو الآخر، يعد بعض النقود في ركن قصي، وعلى وجهه ترتسم امارات السعادة.

قال الرجل المهم:

ـ «إذا طلب أحد منك تصريحات. . أو مذكرات. . أو أي كلام فارفض يا أبو الفتوح. . قلت لك الصمت أغلى من الذهب. . ولن نتخلى عنك أبداً، وسنكون إلى جوارك حتى تنال البراءة. . ».

وبعد يومين نشرت جريدة «الليالي الغراء» تعليقاً غاضباً، أشارت فيه إلى أن قوى الضغط والارهاب وعصابات الظلام

قد تدخلت بجبروتها ووسائلها الخبيثة لمنع أبو الفتوح من رواية مذكراته ونشرها، وأنها سوف تعمل جاهدة على كشف مؤامرة التعمية والكبت التي يمارسها ذوو النفوس المريضة.. وصرح «الزير أبو ليلة» بأنه بدأ في كتابه قصة جديدة للرد على أجهزة القمع، وأعداء الحرية.. وفي اليوم الذي نشر فيه تصريح الأستاذ «الزير أبو ليلة» نشرت صحف المساء أن «الأستاذ الزير» قد حدث احتكاك بينه وبين أعضاء نادي الجزيرة، وترتب على ذلك أن أخذ «علقة ساخنة» أسالت دمه، ولم تنجل عن اصابات خطيرة، ومن الغريب أن أحد المعتدين انتزع قلم الأستاذ الزير وصوبه نحوه وقال:

ــ «لولا أني انسان متحضر لغرزت هذا القلم المأجور في عينيك..».

إن أموراً كثيرة تجري في الخفاء، القضايا الهامة في البلد تتوارى، وتطفو على السطح أحداث ثانوية أو فرعية لا قيمة لها، وينشغل الناس بأمور تافهة، ويبقى الحال على ما هو عليه، والحرب دائرة بين المحور والحلفاء، وحكايات لا حصر لها عن هتلر والمعارك، والمستقبل للدنيا كلها غامض لا يعرف أحد ماذا سيحدث غداً، والغلاء كغول، والفقر ينشب أظفاره، وتجار السوق السوداء تنتفخ كروشهم وجيوبهم، والفلاحون أرهقهم «الرجيم» الاجباري، ولهذا فهم لا يشكون من ارتفاع نسبة الكولستيرول في الدم ولا الضغط ولا الذبحة، فقط الانيميا.. فقر الدم، والبلهارسيا..

يقول أبو الفتوح لزوجه قطيفة:

ـ «الفلوس زادت همي . . والناس يعرفون . . واللصوص في كل مكان . . أخـاف أن يقتلونا ويستولوا عليها . ثم نهاجر إلى قرية أخرى في آخر الدنيا لا يعرفنا فيها أحد؟؟ أنذهب إلى مصر أم الدنيا ونندس في حي من الأحياء الشعبية حتى ينسانا الناس . . أنا في حيرة . . فطنيني يا قطيفة، أريد أن أنام . . » .

وكان من رأي قطيفة أن يشتري أبو الفتوح فدانين أو ثلاثة من الأرض الزراعية وجاموسة وحماراً، ويتحول إلى الزراعة، ويبدأ حياة جديدة، ورأت أنه من الأفضل أن تكـون ملكية الأراضي لطفليها تجنباً من لما قد يحدث في المستقبل .

غمغم أبو الفتوح وهو شارد النظرات :

ـ «تعلمت من السجن الكثير . . كنت نائماً واستيقظت . . »

ـ «ما معنى كلامك؟؟» .

ـ «ستعرفين كل شيء في حينه يا قطيفه . . » .

* * *

مفاجأة جديدة في مشكلة أبو الفتوح الشرقاوي . . ذات يوم لم يظهر أبو الفتوح خـارج بيته . . ظـل الباب مغلقـاً، حتى الظهر . . لم يسمع الحارس صوتاً لـرجل أو امـرأة أو طفل، داخله شـك، أيكونـون نائمـين أم موتى؟ ليس هنـاك تفسير ثالث . .

دق الحارس على الباب

لم يسمع غير الصدى . .

ـ «افتح يا أبو الفتوح . . افتح الله يخرب بيتك»

الصمت يمتد في الداخل

تجمهر عدد قليل من الجيران والمارة، والعسكري يحاول أن يفتح الباب عنوة، وقد قدم أحد الخفراء ليساعده في المهمة.. وثب أحد الشباب فوق الشباك وتسلق حتى بلغ سطح البيت.. وهرول على الدرج الطيني حتى بلغ الساحة.. غرفة الفرن خالية.. والبيت ليس فيه أحد.. صاح من الداخل:

ـ «لا أحد هنا».

واستفسر أحد الموجودين:

ـ «أين ذهبوا؟».

رد صوت آخر:

ـ «لقد اختطفوا أبو الفتوح وعائلته..».

«اختطاف.. اختطاف.. اختطاف..» ترددت الكلمة في ارجاء القرية، قدم العمدة ومشايخ البلد والخفراء والطلبة والفلاحون.. وعشرات الأسئلة تنطق الأفواه الفاغرة، والعيون المبحلقة، وحركات الرؤوس الحائرة..

ـ «ماذا جرى؟؟».

وفي ساعات قلائل كان رجال الأمن يجوسون خلال الديار بحثاً عن أبو الفتوح، ويحققون مع أقاربه ومعارفه، ويجمعون البيانات عن أصحابه في القرى والكفور المجاورة على الرغم من تأكيده قبل ذلك أنه «مقطوع من شجرة» وليس له عشيرة، لكن هذه الأقوال في مثل تلك الظروف لا تؤخذ مأخذ الجد.

وتضاربت الأقوال والأفكار كالعادة، كل يحاول أن يفسر

اختفاء أبو الفتوح وفقاً لأهوائه، ومصالحه، والحقيقة في هذا الجو تضيع معالمها دائماً. . العسكري المسكين الذي كان كلف بحراسة أبو الفتوح قبض عليه، وتم ترحيله للمركز، ووجهت إليه تهمة التواطؤ مع الخاطفين مقابل رشوة. .

قالت أم الطفل شوقي عبد الفتاح:

ـ «الله يقطعك يا أبو الفتوح. . هذا الملعون أقام الدنيا وأقعدها. . وهو لا يساوي مليماً. . ».

قال طفلها شوقي:

ـ «أصله كذاب يا أمي. . ».

ـ «اسكت أنت يا ولد. . كلهم كذابون. . ».

وشمل التحقيق الذي أجري حول اختفائه جريدة «الليالي الغراء» وخاصة الأستاذ «الزير أبو ليلة» برغم أنه تحت العلاج، كما شمل الشريجي باشا الذي تحسنت حاله، وخرج من غرفة الانعاش، وخضع للتحقيق أيضاً الطالب شعبان عبد اللطيف من جماعة الاخوان المسلمين، واللص المحترف بسيوني المغازي، وجيران أبو الفتوح والعمدة والخفراء. .

وأشار حضرة العمدة أثناء التحقيق إلى أهمية أخذ رأي عامل التليفون «الحاج يونس عبده» المحبوس على ذمة القضية الخاصة بالعيب في الذات الملكية، وذلك لخبرته الطويلة، ومعرفته بشخصية أبو الفتوح. .

قال أحد وكلاء النيابة المكلفين بالتحقيق:

ـ «قضية أبو الفتوح فقاعة هائلة ضخمة من الوهم. . ولا

تحتاج لغير شكة دبوس، وينتهي كل شيء.. لكن من سيتخذ القرار الشجاع؟؟».

كان الناس الطيبون في القرية مشفقين على أبو الفتوح الشرقاوي الذي أغرق نفسه في مستنقع من المشاكل التي لا حصر لها. وكان يقلقهم أن يفقد المسكين حياته في هذه الفتنة الصاخبة.. هناك من بين أصحاب القرار من لا يهمهم حياة الناس.. إنهم يحرصون فقط على تبرئة أنفسهم من الاهمال والعجز والتقصير.. حتى ولو كان ذلك على حساب حياة الأبرياء..

البـراءة

كان الاتجاه لدى غالبية من يعنيهم أمر أبو الفتوح الشرقاوي هو أنه قد خطف، ومن المحتمل ألا يكون الخطف كافياً، ومن ثم فإن القضاء عليه أن يحسم الكثير من المشاكل، ويقضي على التورط لدى مختلف الجهات، ومن يكون أبو الفتوح؟؟ مجرد رجل رخيص قيمته في ارتباطه بالقضية، ولو لم تكن القضية لما كان له سعر، وانتهاء القضية سواء لصالحه أو لصالح غيره، سيظل يوجد له اسماً وذكراً، أما موته فهو الذي يسدل ستار النسيان على كل شيء.. وما أبو الفتوح إلا رقم وسط ملايين الفلاحين الذين لا وزن لهم ولا أثر.. هذا ما يعبر عنه عقلاء الناس الواقعيون، كل الأمور الرومانسية في القضية ستذهب، ولن يبقى منها إلا الحقيقة المرة: التعساء وحدهم يدفعون الثمن حتى يظل الكبار كباراً، وتبقى أمامهم فرص الحياة مفتوحة حتى النهاية.

* * *

تلفت أبو الفتوح حواليه، كانت الغرفة مضيئة بنور الشمس، والأثاث مرتب نظيف، وأمامه ما يكفيه من الطعام الجيد، وامرأته إلى جواره تنظر في دهشة وحيرة دون أن تنطق بكلمة، أما الطفلان فقد كانا نائمين بعد أن بكيا كثيراً..

وبالباب وقف رجلان، وعلى مقربة منهما ثالث في الصالة قال أبو الفتوح:

ـ «أين أنا؟».

ـ «في منيل الروضة».

ـ «اسم أسمعه لأول مرة».

ـ «ألم تأت إلى القاهرة من قبل..»

ـ «مصر أم الدنيا..».

قال أحد الرجال:

ـ «أنت في أمان»

ـ «قلبي يحدثني بذلك.. أنا رجل أمي لا أقرأ.. لكني أفهم لغة العيون والقلوب».

ـ «الحمد لله..».

ـ «طمأنني قبلكم الشيخ شعبان عبد اللطيف.. لم أجرب عليه كذباً قط.. أشار علي بالرحيل.. حسبت ذلك مستحيلاً.. فكرت في الهرب.. لكن عجزت أن أفعل ذلك وحدي..».

قال الرجل بثقة:

ـ «لقد حاولنا تهريبك من السجن خوفاً عليك من الغدر..».

ـ «لماذا تفعلون ذلك من أجلي؟».

ـ «لوجه الله.. لأنك مظلوم.. ونحن جربنا الظلم..».

دمعت عينا أبو الفتوح، فمسح الدموع بكمه وقال:

ـ «أنــا أستحق كـل مــا حـدث.. لأني.. أقصــد.. كذاب..».

ـ «الله يغفر الذنوب جميعاً.. والإنسان لا يولد كذاباً يا أبو الفتوح.. عصور الظلام تنبت المباءات كلها..».

ـ «ربما لا أفهم بعض ما تقول، ولكني استحق الضرب.. لم تكن هناك قتيلة.. ولم ألوث يـدي بدم أحـد، في أوقات الرعب كنت على استعداد لأن أقول أي كلام..».

وقدموا إلى أبو الفتوح ورقة لكي يبصم عليها وضع بصمته في المكان المطلوب وقال:

ـ «أنا لا أملك أرضاً ولا مالاً..».

كانت الورقة رسالة موجهة من أبو الفتـوح الشرقاوي إلى النائب العام، يقول فيها ويؤكد أنه لم يهرب من المحاكمة، أو يخالف روح القانون أو الأوامر الادارية الصادرة إليه، والدليل على ذلك أنه سوف يحضر إلى المحكمة في يوم نظر القضية، بشرط أن يتركوا له حريـة اختيار محـل الاقامـة الذي يختـاره لنفسه، وأن تصبح حمايته لأمنه مسألة شخصية، وخاصة بعد ظهور أدلة توحي بأنه يمكن أن يكون ضحية للقوى الحـزبية والأمنية المتصارعة، وسيكون هناك شخصيات لها وزنها تضمن تواجد أبو الفتوح عند الطلب للمثول أمام أية جهة رسمية، كما أنه يرجو من النائب العام ألا يعلن عن وجوده قبل الجلسة، وسوف يضع عنوانه أمام النائب العام، على وعد بأن يظل هذا العنوان سراً من أسراره، بمعنى أن افشاءه قد يودي بحياته..

بعد أن بصم أبو الفتوح على الورقة قال:

ـ «أنا أثق فيكم.. بلغوا تحياتي للشيخ الجليل..».

ـ «إن قوة مسلحة تحرسك..».

ـ «الحارس هو الله يا سيدنا..».

ـ «الحيطة أوجب في هذا الزمن..».

ـ «صدقت والله..».

ـ «أتريد شيئاً..».

ـ «أشتهي فقط أن أنام نوماً عميقاً..».

أكل بشهية، وأيقظ طفليه ليأكلا ربما لأول مرة في حياتهما الكفتة والكباب، وشاركت زوجه في الأكل، وهي تشعر لأول مرة منذ نشوب الأزمة بارتياح داخلي حقيقي لا تشوبه شائبة من الخوف أو الشك، وخالج أبو الفتوح احساس شامل بأنه لم يعد يملك من أمر نفسه شيئاً، وأن مصيره كله بيد الله، ولعل ذلك هو السبب في أنه أخذ يستعيد توازنه تماماً ويبتسم، ويقبل طفليه، ثم يضع ذراعه حول عنق قطيفة، ويرمقها في ود وحب واشتياق.. قال لها:

ـ «الأبواب مغلقة من الداخل، والمفاتيح معي.. ها هي.. والحراس في الخارج.. وكل شيء هنا مرتب جميل يوحي بالاطمئنان.. تعالي..».

ظلت قابعة في مكانها شاردة تفكر

همس:

ـ «فيم تفكرين يا عبيطة».

ـ «بيتنا الصغير في القرية . . » .

ـ «ليس فيه ما يساوي نصف فرنك . . » .

ـ «فيه الخير كله . . » .

ـ «إن ما يحز في نفسي يا قطيفة هو ترك الحمار وحده . . سيموت من الجوع . . » .

ـ «لن يتركه الجيران بدون أكل . . لكن . . » .

ـ « ماذا؟؟» .

ـ «دائماً أخاف من البندر . . » .

ـ «نحن في المحروسة يا هبلاء» .

ـ «الناس فيها غير الناس في قريتنا . . » .

ـ «كلهم خلق الله . . » .

ـ «وخلق الله ليسوا سواء . . أشعر أنهم بشر غيرنا يا أبو الفتوح . . أصبحت أكره كل من يلبسون البدلة . .

ـ «لماذا يا قطيفة . . » .

ـ «كانوا يضربونك دون رحمة . . » .

ـ «غلطانة!! أصحاب البدل يصدرون الأوامر، والمخبرون يضربون . . وهم يلبسون الجلابيب مثلنا . . ثم هؤلاء الذين أنقذونا وأتوا بنا إلى هذا المكان . . إنهم يلبسون البدل . . اللبس ليس كل شيء . . » .

هزت رأسها قائلة :

ـ «عندك حق . . »

توقف عن المضغ برهة، وشرد مثلها وقال :

ـ «أتدرين ما الذي يؤلمني؟؟»

ـ «ماذا؟؟».

ـ «وحشني الحمار.. والخضار.. والفواكه.. والسوق.. والزبائن!! كان صوتي يجلجل في الشوارع، وأغني على بضاعتي وأنا سعيد.. أردد نفس الأغاني كل يوم.. أشعر كأني سلطان.. أي والله سلطان يا قطيفة.. مملكة.. كان لكل شيء طعم لذيذ في فمي.. حتى المش والفجل.. إنهما أشهى من هذا الكباب وهذه الكفتة.. أما صحن الفتة وبرام الأرز.. وقطعة اللحم الصغيرة.. يا سلام.. كلي يا امرأة وانسي الهموم.. وغداً تعود أيامنا الحلوة..».

قالت في غضب:

ـ «ما جربت معك إلا طعم المر والحنظل»

ـ «أخص عليك يا قطيفة. أنا أعزك».

ـ «أيعجبك ما نحن فيه».

ـ «قضاء أخف من قضاء يا بنت الناس. ومضت بضع ليال، وأبو الفتوح يألف الجو الجديد شيئاً فشيئاً، وبدا أن صحته قد تحسنت، ووجهه قد ابيض، وزالت حمرة عينيه، وكان يقضي وقته في الصلاة وذكر الله والدعاء، وأصبح أكثر ثقة في براءته مما نسب إليه من جرائم لم يرتكبها، وكان الزوار المسؤولون عنه يأتون إليه بكل ما يحتاجه من يوم لآخر، وأصبح مطمئناً إليهم أشد الاطمئنان، ولم يكن يعلم أن هناك تقريراً سرياً مفصلاً وصل إلى النائب العام قبل نظر القضية بيوم واحد، وفيه تفاصيل كاملة عن المكان الذي تختفي فيه عنايات هانم، والاجراءات المتخذة لمراقبتها حتى لا تفلت مرة

أخرى . .

كانت المفاجأة مزدوجة ، حينما ظهرت «عنايات هانم» في اليوم التالي في غرفة المحاكمة ، كما ظهر أبو الفتوح في القفص . لم يكن أبو الفتوح يعرفها خلافاً لما زعم من قبل ، وكان الصحفيون بأضوائهم وأسئلتهم يزحمون المكان ، وطالب الأستاذ «الخشاب» أحد المدافعين عن أبو الفتوح الشرقاوي بعقد هذه الجلسة سرية ، وأودع لدى القضاء مذكرة بالأسباب .

قال القاضي لأبو الفتوح :

ــ «هل تعرف الهانم؟» .

نظر أبو الفتوح طويلاً ثم قال :

ــ «والله العظيم لا أعرفها» .

ــ «هذه عنايات هانم» .

فكر لحظة ، وتذكر الاسم ، ثم مد يديه إليها ضارعاً والدموع تتدفق من عينيه :

ــ «هل أنا قتلتك يا ست هانم؟» .

فضجت القاعة بالضحك ، وابتسمت عنايات في ثقة ، وهي تحاول أن تكتم ضحكتها ، بينما أبو الفتوح يقسم أيماناً مغلظة بأنه لم يرها في حياته ، ولم يقتل أحداً من قبل ، لا هي ولا غيرها .

وشرحت السيدة عنايات موقفها بإسهاب ، مؤكدة أن لها مطلق الحرية في أن تتخذ المسكن الذي يروق لها وألا تعلن عنه

لأسباب شخصية تخصها وحدها، وأنها لم تقصد من الاختفاء تضليل العدالة، وذكرت أن محاميها قـد رفع قضيـة اليوم في الصباح مطالباً لها بالطلاق لأسباب قوية، إذ أنها لا تعيش مع زوجها الشريجي باشا إلا في حالة انفصال تام جسدياً ومعنوياً، ويمكنها أن تثبت ذلك بالأدلة والبراهين القاطعة، لقد صبرت طويلاً آملة أن يشفى من مرضه، ولكن أحد الأطباء أفهمها أن الشفاء ميئوس منه، ولديها شهادة طبية تؤكد ذلك.

قد يكون ذلك هو السبب الـرئيسي فيما آلت إليـه صحة الشريجي باشا من سوء عندما علم بوقائع الجلسة، مما اقتضى اعادته إلى غرفة الرعاية المكثفة..

وأحضر عـامل التليفـون الحاج «يـونس عبده» من سجن السياسيين الذي أودع فيه بتهمـة العيب في الذات الملكيـة، للادلاء بشهادته حول ما جاء في بعض تقاريره السرية وأقواله السابقة ودخـل القفص بزي السجن، ففتـح له أبـو الفتوح ذراعيه واستقبله مرحباً، وأخذ يقبـل وجنتيه، فـدفعه الحـاج يونس بعيداً عنه في غضب وقال:

ـ «ابعد عني الله يخرب بيتك.. زوجك شهدت ضدي. ثم من أنت؟؟ أنا متهم سياسي وأعـامل في السجن معـاملة حرف ألف.. وأنت سجين عادي تعش وتعامل معاملة حرف باء..»

لم يغضب أبو الفتوح بل ظل محافظاً على ابتسامته الصادقة وقال:

ـ «السجن أصبح درجات؟؟ يا سبحان الله!! لا ألف ولا باء ولا تاء.. كله سجن والسلام يا حاج يونس.. يعني على رأسك ريشة.. الله يسامحك..».

وكم كانت دهشة أبو الفتوح حينما فوجىء بيونس عبده يبصق في وجهه، وكرد فعل سريع رفع أبو الفتوح يده وهوى بصفعة قوية على وجهه.. وساد الهرج والمرج داخل القفص، وتدخل الحراس، ومن حسن الحظ أن هيئة المحكمة لم تكن قد انعقدت بعد.

جلس يونس يكز على أسنانه في غضب:

ـ «لسوف أدفعك الثمن غالياً يا ابن الشرقاوي..».

ـ «افعل ما تشاء.. لن يحدث أكثر مما جرى.. والأعمار بيد الله يا حاج يونس.. يا إبليس..».

وصاحت قطيفة من مقاعد الحضور:

ـ «أرضي يا حرامي.. أرضي يا ضلالي يا غشاش..»

* * *

في ختام مرافعته قال الأستاذ الخشاب:

ـ «.. الحمد لله، فقد أثبتت الوقائع والأدلة المادية الدامغة أنه ليست هناك جريمة قتل، وبالتالي لا وجود للجريمة التي لفقت للمتهم المسكين أبو الفتوح الشرقاوي.. الجريمة التي انجلت عنها هذه القضية، والتي لم يصدر عنها حكم حتى الآن هي جريمة اغتيال حقوق الإنسان، واهدار حرياته وكرامته وشرفه وأمنه.. إن السلطات الأمنية للأسف الشديد استغلت

أوضاع الحرب والأحكام العسكرية للتنفيث عن شذوذها، وشهوتها في التسلط والقهر، وانفاذ سياسة القطيع. . . ».

إن ملايين من أمثال أبو الفتوح الشرقاوي يعانون مثل ما عانى، وربما أكثر، بل لدرجة الموت. . ومن ثم فإن هناك ملايين الجرائم التي ترتكب كل يوم ولا تطالها يد القانون أو العدالة، لأنها تتم في ظلام الطوارىء والأحكام العسكرية. .

إنني لا أطالب ببراءة أبو الفتوح الشرقاوي وحده، بل أطالب بتحرير الملايين المضطهدة الفقيرة من سجن الاستعمار الداخلي المتمثل في سياط العسكر، ومن سجن الاستعمار الخارجي الذي جثم على أرضنا عشرات السنين، فأورثنا العديد من العلل والمباءات. . ولا سبيل أمامنا سوى السير على منهج النبي المعصوم محمد ﷺ، وشريعته الغراء، والتنادي بالجهاد في سبيل الله. . والله أكبر. . ».

وضجت القاعة بالتصفيق والتكبير والتهليل وهتف أبو الفتوح داخل قفصه دون أن يفهم الكثير مما يقال:

ــ «يحيا العدل. . يحيا العدل».

رمقه يونس عبده داخل القفص، وقال في سخرية:

ــ «اخرس يا حمار. . ».

صدر الحكم ببراءة أبو الفتوح الشرقاوي.

ومن المصادفة المهمة أن يونس عبده هو الآخر نال البراءة وذلك لتضارب أقوال الشهود، وعدم الدقة في تطابق عباراتهم، فضلاً عن أنه ــ كما يقول ــ يرمي «الطعم» أحياناً

ليستدرج أعداء السلطة للبوح بدخائل نفوسهم حسبما درج عليه كمرشد قديم ناجح للبوليس السياسي.

ومات الشريجي باشا في المستشفى أثر جلطة بالشريان التاجي لم تمهله طويلاً..

لم تكترث القرية كثيراً بمعارك «روميل» ثعلب الصحراء الالماني الذي تقدم غرباً ليحتل مصر، بل كان الاهتمام الأكبر بعودة أبو الفتوح الشرقاوي، فهو برغم تواضع مكانته الاجتماعية لقي عطفاً من الفلاحين أثمن له من كل كنوز الدنيا، وبعد يومين أو ثلاثة، يسحب حماره من جديد ليبيع الخضروات والفواكه، وصوته يجلجل في شوارع القرية وحاراتهاالمتربة، كان صوته رقراقاً ندياً، وإن شابته مسحة من الحزن.. وكانت مظاهر تعاطف أهل القرية معه متنوعة فهناك من أرسل له كيلة من القمح برغم شحته، أو نصف كيلة من الذرة، أو كمية من الأرز، أو دجاجة أو فطيرة، والبعض بعث إليه بوجبة ساخنة دسمة..

قال لقطيفة:

ـ «عهد علي أمام الله ألا أنسى هذا الجميل طول حياتي، وأن أحاول دائماً أن أشدد هذا الدين الذي طوقوني به..».

قالت وهي تخدره بسبابتها اليمنى:

ـ «وألّا تكذب».

ابتسم في ألم:

ـ «وألّا أكذب..».

ولم تهتم القرية كثيراً بعودة يونس عبده، فقد قدم متعالياً منتفخ الأوداج، ويفخر بسجنه، ويزعم أنه أصبح من رجال السياسة في الحزب، وأن السجن وسام شرف على صدره.. وأنه.. وأنه.. وأنه.. حتى سئم الناس كلمة «أنا».. وعندما يأتي ذكر أبو الفتوح يبدي يونس عبده الاشمئزاز، ويقول في عنجهية:

ـ «كان جربوعاً، وسيظل جربوعاً..».

الخاتمة

قال أبو الفتوح الشرقاوي، وهو يلقي بجسده المنهمك على الحصير الجديد:

ــ «الجميع يعتبرونني كذاباً، وأن الكذب هو الذي جرني إلى تلك المآسي كلها».

قالت قطيفة:

ــ «ما في ذلك شك».

أغمض أبو الفتوح عينيه، وشرد إلى بعيد، تذكر أيام الطفولة.. كانت زوج أبيه القاسية تجيعه وتتركه بلا طعام، وذات مرة سرق قطعة من اللحم فضربته ضرباً مبرحاً، فلم يجد مخرجاً سوى أن يزعم أن القطة هي التي اختطفت قطعة اللحم.. ومرة أخرى نفس القطة شربت اللبن.. كان يجد في الكذب نجاته من العذاب.. حتى عندما كبر كانوا يطالبونه بأن يبيع بالتسعيرة.. ما معنى التسعيرة؟! إنه يشتري بخمسة قروش ويبيع بستة.. والناس تعرف.. وهذا هو الحق.. فكيف يبيع بأقل مما يشتري؟؟ التسعيرة ليست عدلاً.. إنها خسارة وظلم.. ثم يقسم للمخبرين والمفتشين الذين يأتون من قبل وزارة التموين أنه يبيع بالتسعيرة، ويعطي كل مخبر بطيخة

أو شمامة أو كيلو من العنب . . ويهمس بينه وبين نفسه في سخرية «آه يا بلد البطيخ ! !» أما العمدة وشيخ البلد وشيخ الخفراء فلم يكن أحد منهم يدفع ثمن ما يأخذه . . حتى أهل القريـة لا يهتمون به، ويحتقرونه كلما قال الصدق، فإذا تفتق ذهنه عن خبر مصنوع، أو قصة مخترعة، أو إشاعة كاذبـة اهتموا بـه، وهرولوا إليه يطلبون منه المزيد . . عالم كله قائم على الكذب والنفاق، ومن يعزم على الصدق يلاقي الأهوال والمتاعب.

جاءه صوت قطيفة:

ـ «لماذا سكت يا أبو الفتوح؟»

ـ «أنا ضحية»

ـ «لا تخدع نفسك».

ـ «لست الشيخ المداح . . بل أنا أبو الفتوح».

ـ «أنت تحاول أن تبحث لنفسك عن مخرج . . »

ـ «كنت أجد في الكذب نجاتي في هذا العالم الفاسد».

قالت قطيفة في غضب:

ـ «ما زلت في ضلالك، ألا ترى ما جره عليك الكذب في هذه القضية المشؤومة؟؟».

ـ «أعرف . . ».

ـ «ففيم الجدال».

ـ «بالنسبة لي اتنتهى عهد الكذب مهما كلفني من ثمن، لكن الدنيا من حولنا تطفح بالكذب . . وستبقى . . »

ـ «كيف؟؟».

ـ «لا أستطيع أن أبيع بالتسعيرة، ولا يمكنني أن أقول لحضرة العمدة وزبانيته أنتم ظلمة ومنافقون.. ولا أستطيع أن أشي بالعاهرات في قريتنا لأن ذويهم سوف يقتلونني إذا قلت الحقيقة، ماذا تفعلين لو كنت مكاني يا قطيفة؟؟».

قالت وهي تزوم:

ـ «أنام..».

ـ «دون أن نتعشى..».

ـ «أجل..».

جلس، وتلفت حواليه، كان الصمت يلفع المكان، والليل يبسط رواقه في الخارج، ونباح الكلاب يثور من وقت لآخر، وكأنها نظمت نفسها أن تنبح في وقت واحد، ثم تصمت لبضع دقائق».

قال أبو الفتوح:

ـ «إن مشروعنا القديم هو الحل».

ـ «أي مشروع؟؟».

ـ «أن نترك التجارة، ونحترف الزراعة، إنها عمل شريف بعيد عن المتاعب والأكاذيب.. سنزرع كل شيء الحبوب والخضروات والفواكه.. وسنورد للحكومة حصتها في القمح.. ونبيع القطن بسعر معقول.. وستكون لدنيا بقرة وجاموسة ولبن.. ودواجن وبيض..».

وفاجأته قطيفة بقولها:

ـ «فلوسنا حرام..».

صدمته الكلمات فهتف:

ـ «كيف؟؟».

ـ «إن الذين أعطوك الفلوس مشكوك في ذمتهم ونواياهم.. ثم إنك لم تقدم شيئاً حقيقياً لهم مقابل هذه الأموال..».

أمسك بكتفها وقال:

ـ «هذه الفلوس كانت ثمن عذابي ودموعي..»

ـ «الجزاء عند الله يا أبو الفتوح..».

هب واقفاً، وقال هو يلوح بيمناه:

ـ «أعطيتهم ما طلبوا من كلام.. بعت لهم أسراراً.. كنت أروي لهم الحقيقة.. لأول مرة في حياتي سردت ما حدث بالضبط.. دافعوا عني.. وقرأ الناس قصتي..».

ـ «من قال أن الكلام يباع ويشترى».

ـ «أنا أقول ذلك يا قطيفة.. والناس جميعاً يفعلون ذلك.. نعم.. المحامي يقول كلاماً.. والمدرس يقول كلاماً.. وكذلك الواعظ.. والشاهد.. والقاضي.. والمؤلفون والوزراء.. والعمدة ومشايخ البلاد والخفراء.. وكل الذين يكتبون في الجرائد، ويتكلمون في الاذاعة.. والمغنون والممثلون.. أكبر سلعة اليوم هي الكلام.. وهم يكذبون وينافقون.. أنا قلت حقيقة ما حدث لي، وقبضت الثمن.. إنه مال حلال.. أتفهمين يا غبية.. أفيقي.. نحن في زمن غير الزمن..».

وتوقف أبو الفتوح عن الحديث لقد سمع هو وزوجه صوتاً باكياً في الخارج يقول:

ـ «لا إله إلا الله.. محمد رسول الله كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام..

توفي إلى رحمة الله بالأراضي المقدسة، في المدينة المنورة شيخنا الجليل الشيخ المداح، ودفن بالبقيع.. إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..».

وقف أبو الفتوح جامداً بضع لحظات وإلى جواره وقفت قطيفة..

شحب وجهه وهتف بأعلى صوته:

ـ «مات الصوت الصادق في قريتنا..».

ثم انفجر باكياً يشهق.. وتدفقت دموعه لم يبك على أبيه وأمه كما يبكي الآن.

وجاءه صوت الجموع الهادرة في الخارج:

«يا دايم ولا دايم غير الله..».

وخرج أبو الفتوح وزوجه إلى الشارع في الظلام.. كانت الأرض مغطاة بالرجال والنساء والأطفال والقناديل الصغيرة تتماوج أضواؤها الضعيفة في حزن وأسى، وكأنها هي الأخرى تندب وتنوح..

الشيخ محمود أبو سكين الكفيف أشهر مقرئي القرآن في بيوت القرية ومقابرها ومآتمها يترنم بصوت مبحوح ببردة الإمام

البوصيري ويقول:

أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق في الظلماء من أضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا
وما لقلبك إن قلت استفق يهم

وكلما قال بيتاً من الشعر يرد الناس من خلفه قائلين:

مولاي صل وسلم دائماً أبداً
على حبيبك خير الخلق كلهم

من الغريب أن النسوة كن يزغردن، والدموع في العيون، والرجال يتغنون ويذكرون الله وكأنهم في غيبوبة من الوجد الصادق الذي لا يخالطه شك أو افتعال.. أهو مأتم أم فرح؟؟

امتلأت القرية طوال أيام الاسبوع بالوافدين من القرى المجاورة، والقرى النائية، كانوا يعقدون حلقات الدروس والذكر، ويشيدون بمناقب الشيخ وأياديه البيضاء، وسيرته العطرة، وفكر بعض أهل القرية أن يقيموا للشيخ ضريحاً في القرية، وتسابقوا في جمع التبرعات لهذا الغرض، لكن أحد الحجاج الورعين الذي حضر وفاة الشيخ في المدينة وعاد من الحج متأخراً قال:

ـ «أوصاني الشيخ قبل وفاته أن يخلفه في المشيخة ابنه عبد السلام، كما أوصاني أن أخبركم بأنه سعيد بنومته الأبدية

على مقربة من رسول الله . . وحذركم من أن تقيموا له ضريحاً في القرية . . لأن الحب في القلوب وليس في الطين والطوب والقباب والمآذن . . ».

* * *

قالت قطيفة لأبو الفتوح الشرقاوي:

ـ «لماذا لا تحلق ذقنك . . ».

ـ «لأنها سنة عن رسول الله . . ».

ـ «أتصونها يا أبو الفتوح؟؟».

ـ «عهد بيني وبين الله . . حياة جديدة».

وبدأ الشيخ الجديد عبد السلام ولايته، واتخذ مكان أبيه، وعادت القرية إلى مسيرتها الخالدة.

وسيرة الرجل الطيب، وصورته، تبدوان وجوداً حياً نابضاً بالحب والسماحة والإيمان والأمل . .

* * *

افتتح الإخوان المسلمون شعبة في القرية، وكان أبو الفتوح الشرقاوي أحد أعضائها، وفرح أيما فرح عندما علم أنهم سيعلمونه القراءة والكتابة ويحفظونه القرآن مع غيره من الشبان الأميين، واعتبر ذلك نعمة كبرى من الله . . ولم يكن ذلك المسكين يعلم أن هذا التحول الكبير في حياته سوف يكون في المستقبل باباً لمتاعب من نوع جديد لا تخطر له على بال . .

المحتويات